THE SEVEN PRAYERS OF LOVE

صلوات الحب السبع

26.7.2017

رواية
NOVEL

فؤاد يازجي

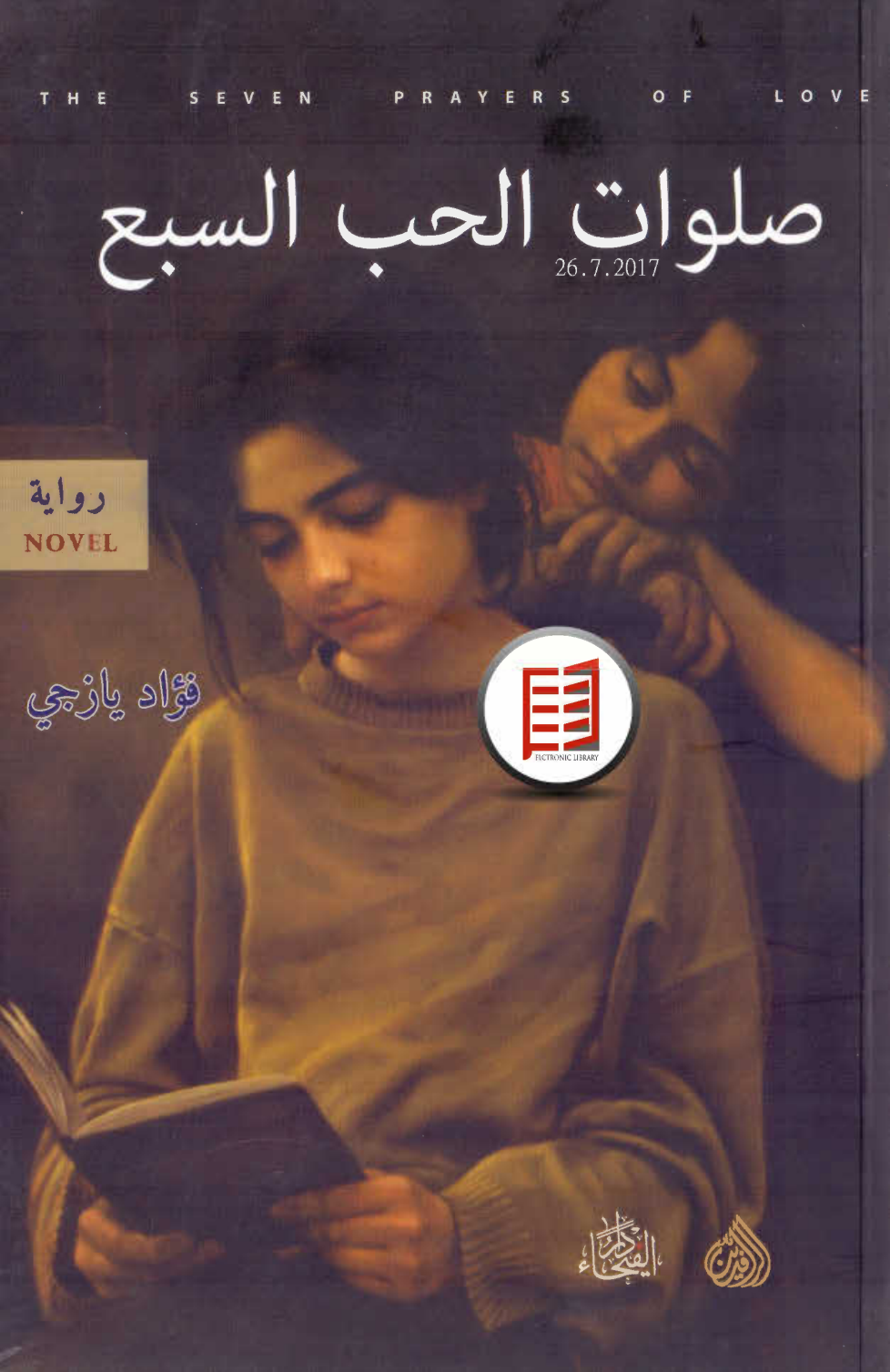

صلوات الحب السبع

Telegram: electronic_library

صلوات الحب السبع

المؤلف: فؤاد يازجي

صورة الغلاف:
Portrait of E. A. Naryshkina
Vladimir Borovikovskiy

طُبع في لبنان، 2017
First Edition، Lebanon، 2017

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أونقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved، is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book، or part thereof، or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information، whether electronic or mechanical، including photocopying، recording، or storage and retrieval، without written permission from the rights holders

لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+

Mob.:.0964 780 1312072
00964 770 2724801
e - mail: daralfaiha@yahoo.com

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com

dar alrafidain
Dar.alrafidain
DAR ALRAFIDAIN@maassourati

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.
ISBN: 978 - 1 - 77322 - 110- 6

Telegram: electronic_library

رواية

صلوات الحب السبع

تأليف:
فؤاد يازجي

Telegram: electronic_library

صرلي شي مية سني
عـم أَلِـفْ عناويـن
مش معروفي لميـن

فيروز

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

الفصل الأول

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

- ١ -

عندما يناديك الحنين، إلى أرض مفروشة بالذكريات، إلى تلك الأطلال التي تنادي كل خلية من جوارحك، تبتهل إلى ربك ألا تنسى شعاعاً واحداً من ابتسامة آسرة من شفتي مراهقة، أول فتاة سقطت عليك نظراتها المقدسة، فطارت الدنيا بها وبك، حين الحب في أول وعيه.

صباحَ عيد الحب ذاك، زمانَ مراهقةٍ من دموع ونسيان، مضيتُ إلى الشرفة وقلت سأحب أول فتاة تخطو على الدرب، سأهيم بها حتى الممات، وسأتذكرها بعده ملايين السنين في عوالم أخرى من الحنين. كنت أجمع في قلبي لوحدي كل المحبة التي نثرتها الآلهة على الحي بأكمله... ودمدمتُ في نفسي... كن ملاكاً هذا العيد، خبئ النقود للحب فقط... وعندما لفح ضباب الصباح شعري، تحيرت لماذا يغشى قلبي كل هذا الهناء، وخطا على الأوراق الصفراء في الشارع الحزين، فتيات وشبان الحي، ولم يكلمني أو يلق علي تحية أحد، وأحببتهم وودعتهم وهم يغيبون، كانت السماء عميقة عميقة... والوجود كله في حلم... وظللت أنظر إلى الغيم، حتى أيقظتني التفاتة غريبة لفتاة ناعمة مثل لحن على البيانو، هاتفةً دعونا نهدي هذا الياسمين لذلك الفتى، آلا يبدو صافي العينين؟! ونظر إليها أحدهم شزراً، فهتفَتْ: أليس هو عيد الحب؟! وهرعَتْ نحوي عائدةً، كانت في عينيها طهارة غريبة لبراءة لم تسمع بالشر،

Telegram: electronic_library

فتجرأتُ وقلتُ: ما اسمك؟ فهزها السؤال هزاً، كأنما بيتت ألا تبوح بكلمة واحدة، وكمن يضع رسالة في زجاجة ويرميها في المحيط ثم يمضي ينتظر السراب، هكذا رجعَتْ، وحيث وطئَتْ قدماها، كانت الأرض تُزهر، والأغصان تُثمر، والأشجار تمتلئ بالعصافير، وقلبي يطفح بالأناشيد، ودمي كأنه في عيد.

أمور القلب لا تزال في القلب... ولون عينيها لا يزال تحت مخدتي... والسماء عميقة عميقة... والوجود كله في حلم... صباح عيد الحب ذاك... أهدتني سيدة الحنين: إكسير الحب... وعندما شربتُ وأرقتُ رددت... آواه... لكم تختلف هذه الليلة عن باقي الليالي... يا ليتني لم أحبك قط...

وغابت دون أن ينبت لها جناحان، وانفطر قلبي، وبقي الحلم، وسحر في الذاكرة، وعدت إلى غرفتي، واسترخيت بهدوء، وشعرت بسكينة غريبة، ودمدمت في صمت: طوبى لها إن حبها يخدرني.

وبدأ المطر يتساقط فلم أغلق النافذة، تركت الهواء يتدفق حتى صدري، وغفوت وأنا أشعر بخصوبة الأرض، وبملائكة العيد تتسلل من النافذة وتلثمُ وجهي، كنت نائماً وأحس بكل قطرة تلامس التراب وبرائحة الأرض تتصاعد. كنت نائماً وأنا أعلم أن ابتسامة ترتسم على شفتيَ، ابتسامة ليست من هذا العالم.

وعندما رنَّ جرس الهاتف، وثبَ قلبي من مكانه... كأنما هي... نظرت إليه وتركته يرن ويرن، ثم تسللَتْ أصابعي إلى القلم، وقد ظننتُ أنني سأكتب مجلداً ولكنني دونت:

«لامس الحب مخيلتي هذا الصباح، مع ضباب الشتاء الذي لفح النوافذ...».

Telegram: electronic_library

ونضب القلم، وكانت تلك أول عبارة كتبتها في حياتي. ثم وكما أذكر هرعت إلى القفص، وأطلقت العصفور من النافذة، ولوحت له مودعاً، فرفرف بجناحيه ولم يقل شيئاً... ولم أكن أنتظر أن يجيب كان يكفيني أنه يحلق بعيداً، وكنت مثله سعيداً...

المحبة كلمة من نور، كتبتها يد من نور، على صحيفة من نور[1] فكيف تتحطم قلوب وتُزهر قلوب!!؟ كيف ترتعش الغيرة بين الليلك!؟... في الفجر المبكر للحب ذاك، ومن عجب الزمان! أحدس بعد ٣٥ سنة أن جرحاً انفتح في قلب آخر... إن الإنسان لا يكون سعيداً إلا على حطام الآخرين، إن ليرة تكسبها من مكان تفقر آخر كان يسعى إليها... كان ثمة روح أخرى تتمزق: إنني أَولى بالأزهار فكيف ذهبت إليه!؟...

ففي ليلة قرب الشاطئ... بعد سنة... جلستُ وحيداً معه، مع ذلك الذي يعبد حبيبتي، وقال لي: إنني أستحلفك بحب روزالين الطاهر، بصفاء تلك النجوم الساهرة، بعمق ذلك الليل الغامض، أن تترك حبها لي، فقد نشأنا على الهوى منذ الصِغَرْ، وأنت تهزها بنظراتك هزاً وتثير غيرتي، إن تلك الروح التي تهواها هي حبيبتي منذ الأزل.

كان الليل يملأ البحر بالنجوم حقاً، وتلك القصة الدامعة كللتني بالخجل، كانت عينا تلك المراهقة تكسونا كلانا برذاذ من نور، تسكب على قلبي حباً إن تلاشى لن تبقى سوى مرارة عميقة أشبه بانحباس مطر تشرين بعد صيف قائظ.

كنت كلما وقعت في الحب أشعر بتفاؤل عميق نحو الوجود،

(١) جبران.

Telegram: electronic_library

ويتلون الكون أمامي ويصبح ساحراً، ولكن سرعان ما يتبدد ويفلت من يدي كضباب الفجر.

وقبلها كم مرة طاف في أحلامي يغمرني بغموض سرور صامت، كم مرةً أخذتني رهبة مقدسة إلى شعاعه الصافي، كم مرَّة تركت حجرتي وضِعتُ في ضباب الشوارع؟! يضنيني الحنين إلى صبية على شرفة، إلى عينين سوداوين وراء نافذة، إلى ضفائر تعبر بجانبي كما الريح، وتتساءل الأرصفة المقفرة عن الفتى الوحيد! عن طيف الطرقات الغريب، وتتساءل السحب الهاربة: إنه سعيد كأن ملائكة تعزف في داخله صدى الحب! كأن ريحاً غريبة همست في أذنه أسرار الغرام! كنت أحدس بعمق، في فجر المراهقة ذاك، أن الحب هو المخَلِصْ الذي يقلب الأرض إلى أبدية من الهناء، ولكن قلبي ظل دائماً دونما وردة.

الكون يفقد رونقه بدون الحب[1]، ظللت أتذكر هذا القول خمسة وثلاثين عاماً، كلما شعرت بتصحر العقل، كلما أحسست أن حياتي ليست إلا باطلاً وتكراراً، وكانت تعود بي الذكريات إلى أيام ما قبل روزالين، إلى سعادة تَرَقُّب الغرام، وضباب الطفولة لم ينقشع تماماً عن عيني، كان صداه بعيداً غامضاً، كأن رياحاً على قلبي، كان للطفولة أغنية الوداع، مردداً لا تنسني أيها الحب... باركني... حلم قدسي يلاطف بغموض مخيلتي: سيلون الشوق حياتي ويحول الأرض إلى أبدية، الطبيعة تغني لي وقريباً وكما يحضن الثلج القرميد تأتي أيها الهوى، وغداً مثلما ندى الربيع يلثم ريش الحمام تجيئين يا حبيبتي...

(١) مَثَلْ.

Telegram: electronic_library

كانت أُولى ذكرياتي عن الحب، عندما رأيت أختي وكنت في العاشرة، وهي تغني من أعماق أعماق قلبها أغنية لفيروز:

لمَّا بمرق تحت النار

عيونك بتخبيني

بندهلك يا قمر نوَّار

وبحطك عَ جبيني

وكانت تسرح بنظراتها إلى البعيد البعيد حتى تكاد تدخل في غيبوبة، وقلت في نفسي... يا إلهي... أهذا هو الحب!؟... وثانيةُ الذكريات عندما كانت فيروز تضع روحها في الأغاني فلا أدرك هل هي تصلي أم تغني أم تبكي! كانت حارسة المحبة تلك هي الينبوع الحقيقي الذي روى قفار اليأس في مراهقتي المبكرة. إن انسياب تلك الألحان الآسرة جعلني أتوقع بلهفة حياة إلهية على كواكب خضراء، كان صدى كل أغنية جديدة في نفسي كوقع حب جديد، وكما يقول نزار قباني«يا من صورت لي الدنيا كقصيدة شعر» هكذا جعلتني تلك الأغاني أحس أن هذا الكوكب هو الجنة ذاتها... وثالث الذكريات جميل بثينة وقيس وليلى وعروة وعفراء، إن أشعار الحب المدرسية تلك جعلتني أتساءل: «إن لم يكن في الصحراء غير الحب أفلا يكفها!؟» وكنت أسميها

«صحراء الحب» وليس صحراء القتل والجوع والرعونة والسبي والجهل... إن ذكريات كثيرة تستيقظ، إن المطر والبحر والخريف والريح والجبل والقمر، إن الحوافز الموروثة عن الأجداد الأقدمين، الذين عبدوا الفن وصلوا أمام الأيقونات وسجدوا للحب، قد روت زهور مراهقتي، أنستني الوحل العالق على قدمي وجعلتني أحس

Telegram: electronic_library

أنني مولود في الجنة الموعودة. إن ذلك الثالوث المقدس من الحب والطبيعة وفيروز، إن فيض تلك الرؤى في لحظة قدسية جعل هنيهاتي في انسجام كلي شامل، حيث لا وجود لأية سعادة سوى تلك الثواني المضيئة التي يبدو فيها العالم متكاملاً... ويوماً ما، بعد آلاف السنين، سيكتبون أن الإنسان في غابر الأزمان غلب عليه الضيق، ولكنه كان يلمح ومضات من الحرية والانعتاق، وها هي الآن تغمر وقتنا كله.

لقد فتحتُ إذن زجاجة الذكرى... وها أنا أتذوق خمرة الماضي... وسأكمل لكم وأنا منتشٍ كيف أن سحر الحب في المراهقة مقدس ويحوي الخلود.

الدموع السعيدة، تدفق الأيام والأمطار، الهروب القدسي من المدرسة... المسير الحالم إلى حواف المدينة، الجسر المنسي فوق ساقية... الجرأة الروحية بتأمل نفسي وحيداً، صامتاً، منعتقاً من سلاسل العالم، مردداً: كم من الفرح والغيرة ينتظرني!؟ هناك تحت غيمة من البرد وقفت أنتظر الحب، وتحت سماء من الأسرار، حيث قبلت وجهي ريح الليل، وتساقطت فوقي النجوم استلقيت أنتظر الحب.

وفجأةً تجلَّتْ روزالين كنبية في الضباب، صباح القديس فالنتاين ذاك، ووجدتني والدتي مفتوناً في الفراش، وصقيع الشتاء يلفح الغرفة، والقفص الخالي ينوس مع الريح جيئةً وذهاباً، وصدري ينبض.

إن تلك الصبية الناعمة، الحزينة كالمطر، الغامضة كضباب في غابة، الرقيقة كالفجر، قد بدا فمها كزورق يائس في لجة نائية، يرسم ميلاً طفيفاً يلقي ابتسامة دائمة على وجهها تستولي على القلب.

Telegram: electronic_library

إن تلك الفتاة ذات العينين الشاعريتين والابتسامة الساحرة قد بدت فتاة أحلامي الموعودة.

وقالت أمي:

ـ أتنام في عيد الحب...!؟ إن الياسمين مبعثر على صدرك وشفتيك ووجهك.

ـ لست في نوم يا أمي... لقد انساب علي من عينيها شعاعٌ آسر فلف الغموض روحي.

ـ ممن!؟

ـ الغريبة.

ـ لا بد أنك في حلم.

ـ إن الحياة حلم جميل!...

ـ شكراً للرب... ولكن لا تنسى موعد الحفل.

كانت مراسيم حفل القديس فالنتاين بخاراً منثوراً، وتهاني راجفة، صيحات ورفاقاً وحسداً... فيض النور والكؤوس والهمسات والحلوى... سَرْحُ العيون والشفاه القرمزية دحرجتني من الذرى الروحية فشعرت بالضياع، وتوجهت إلى النافذة! شذا الحب لا يعبق من هنا... بل وراء الزجاج حيث مرت الغريبة... كم من العار أن أقبل أقل من فردوس! كم يتناقض الصوت المقدس المنبعث في داخلي مع هذا الصخب! أيعقل أن تلاشي الحلم هو السرور...!؟ كان القدر وراء النافذة، فتركت حفل الواهمين ورائي، ومضيت إلى الطريق الذي انساب عليه حذاء الغريبة، وأحسست أن الهواء لا يزال

Telegram: electronic_library

ممتلئاً بعطرها. وأن مسيري الصامت تحت تلك الأشجار التي مرت بها أشبه بقداس عيد الحب.

وبعد ستة شهور اكتشفت أن الفتى الغريب ذاك الذي يعبد روزالين، كان يتجرع النبيذ في الحفل وينتظر...

Telegram: electronic_library

- ٢ -

«إذا المحبة أَومت إليكم فاسمعوها
إذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها
إذا المحبة خاطبتكم فصدقوها»[1]

وقد صدقتها حتى الثمالة... وتبعت عبير الغريبة من شارع إلى شارع، لقد بدا حبي يخبط فريداً عبر الأحياء باحثاً عنها من عالم إلى عالم، طيف الحب يقود قدمي لا أدري إلى أين، كنت أسير وأسير وأردد أغنية ضائعة في الزمن:

لكَ هذي الريحُ عودُ والغمامـاتُ وترْ
لا تبددكَ الجرودُ ويجمعكَ القمرْ

تمنيت أن أجمع أزهار العالم كلها، وأضعها عند بابها فيغشى وجهها الهناء وهي تفتح نافذة الصباح منشرحة الصدر... تمنيت لو أستطيع الدخول لأرتب لها السرير من الصباح إلى المساء، وأضع الماء في المزهرية، وأشعل الشموع في ثنايا غرفتها، والبخور في الأركان.

ولكن ما هو اسمها حتى أجدها، هل أسميها الغريبة!؟... أم آنسة الياسمين، أم أميرة الحنين، وماذا يجدي كل ذلك!؟... تعبت جداً من

(١) جبران.

Telegram: electronic_library

ظلي... لقد زارت عيناي كل النوافذ، وفرشت نظراتي كل الشرفات، وانتهت بي قدماي من جديد إلى تلك الدروب المنسية، إلى تراتيل الرياح في القفار الخالية، حيث يُذَهِّبُ الغسق مياه البحر البريئة، وينثر ضياء الزهرة الفضي أبدية خالية من المظالم، حيث خِلْتُ بصيرتي تتبع عبيراً غامضاً إلى كوخ الحبيبة الموعود.

ورحت أواسي وحدتي مردداً أغاني فيروز، مكتشفاً المعنى العميق لأول مرة في حياتي لأبيات عاصي الرحباني، وقرأت مسرحية روميو وجولييت، وضممتها إلى صدري وقد تنسمتُ روح الكتاب بعمق نوراني، وحزنت لموت العاشقين جداً... وقلت لا بأس في الجنة عصافير الحب لا تفترق.

كتبتُ اسمها على سنديانة المنزل، وعلى مقعد المدرسة، وعلى رمل الشاطئ، كتبت: سيدة البحر... جليسة الرياحين... أميرة المطر، كنت مؤمناً بجنون أنني سأعثر عليها لا محالة طالما أنها مولودة في قلبي، ومغروزة في كل خلية من خلايا جسدي، والآن بعد ثلث قرن من قراءة الفلسفة الألمانية، والأدب الإنكليزي، والقصائد العربية، لا أزال متحيراً كيف أفسر إيماني أن حبيبة الأيام القادمة تلك أضحت كأنما في جيبي، واسمها لا يزال سراباً في مدينة بحرية من مليون نسمة.

ومن نافذة الصف ميزْتُ قوس قزح، وطرت فرحاً، وأنا أجذب العيون إليه، ولكن النظرات كانت تتسمر بي وليس به، وسأل المدرس وقد تولاه العجب:

ـ هذا قوس قزح وأنت ما بك؟!

Telegram: electronic_library

ـ لا شيء... هذا قوس قزح وأنا سعيدٌ به.

ـ ولكن ما هذا الفرح الكبير؟... خصوصاً وأنا أتكلم عن جميل بثينة... وماذا كتبتَ على المقعد؟!

انتاب الجميع الضحك، وأخذت العيون السود تحترق وتحدق بي. وأكمل:

ـ هل أنت مغرم، هل هذه النار الداخلية مجرد رغبة بالقرب منها!؟...

ـ بل قل أكثر من هذا.

ـ إذن هي مودة.

ـ والله لهي أكثر.

ـ إذن هي محبة.

ـ ليست تلك الغبطة محبة قط.

ـ تيمم!؟

ـ أكثر.

ـ وَلَهْ.

ـ ليس بالضبط.

ـ لعله هوى!

ـ لا.

ـ عشق؟

Telegram: electronic_library

ـ لا.

ـ عجزتُ.

ـ وأنا أيضاً لا أعرف يا سيدي.

ولو أنه سألني ذلك الآن، لكنت أعدت عليه بيت جميل بثينة:

يموتُ الهـوى مني إذا مـا لقيتها ويحيا إذا فارقتها ويعود

كان ثمة فتيات كثيرات حولي، تتواثب الرغبات حول فتنتهن مهيجةٌ خفقان قلبي، ولكنني لا أذكر أن انطلقت شهواتي نحوها، كانت تثور بعيداً جداً عن معبدها، كانت روزالين فقط لتمسك كفي وتمضي بي إلى مخدع المطلق.

ولم ينتبني بعد عيد الحب ذاك كما أذكر أي جوع، كنت أحس أن ما بي من سحر يكفيني، نفسي ليست سوى روح منعتقة من أي جسد، روح خدرة تتبع غيماً بارداً، وعندما حل الربيع تولاني نحول شديد فَطِنَ إليه والدي، أما ذلك المراهق المنسي فلم يكن يفكر إلا في قلبه.

غدوت في غيبوبة عمن حولي، في واحة مقدسة من هيامي وأفكاري، وصار الحب يختفي وراء أقواس قزح كلها، وصارت الطيور في زرقة السماء أكثر، وأصبح يخيل إلي أن الناس يحبون بعضهم أكثر، وبتُّ أخسر في الشطرنج أكثر، ولكن مرة واحدة تجرأت وسألت أمي:

ـ هل تظني أنني أحببت...؟

فأرسلتني إلى جدتي قارئة الفنجان، ولم أكن أبداً أؤمن في تحكم الأبراج في هيام الأرواح، ومع ذلك وجدتني مندفعاً لذلك التفسير الفلكي، كنت أشعر بالقدر يطرق بابي بسيمفونية مدوية مثيرة

Telegram: electronic_library

بين ضلوعي، تجعل الدمع ينسكب ويظلل بحيرة الرؤى القديمة بشحوب مراهق يرتجف.

من شارع إلى شارع... ومن طريق إلى طريق... وذات يوم، وتحت رذاذ بطيء، تذكرت التلاميذ الهائمين أمام أبواب مدارس البنات ونوافذها، فقصدت مدرسة بجوار الشاطئ، كان يخال لي أن تكون هناك، ورحت أتذكرها تحت غيم كامد، وهي تلبس أحبَّ ألوان الزهور إلى نفسي، كان بريق عينيها يملأ وجهها بالفرح، وكان شعرها رحلات النسيم... وهبّتْ من البحر الحالم رياح رمادية على الشوارع الغريقة، عبثت بشعري وذكرياتي وحيرتي. وبدا قرميد المدرسة من بعيد متلألئاً بضباب مسحور. الأرصفة المبللة، جدران المطر، اللبلاب الأصفر، تراءى لي كل شيء مسحوراً يلونه الحب، وكان حائط المدرسة مجروحاً بعبارة: «كميل يحب ماريا»... وعلى جدار آخر رُسم قلب يخترقه سهم وكُتب أسفله:

قبلك ما حدا، وبعدك ما حدا

يا حبيبي يا حبيبي ما حـدا

إن هاتين العبارتين قد قُرئتا صباحاً ومساءً ملايين المرات من العابرين، وعلى مدى ثلث قرن لم يمحهما المطر أو الدولة أو طلاء، وظلت تلك المدرسة العتيقة تستقبل فتيات وتودع أخريات أمام لهاث البحر حتى عدت من سفر السنين وقرأتهما من جديد.

أما من نوافذ المدرسة، فقد كانت الفتيات يغافلن المدرسات ويلقين النظرات والابتسامات على المراهقين الحالمين المنتظرين، وقلما رمت إحداهن وردة أو رسالة، ولكن في ذلك اليوم نثرَتْ يد مجهولة عشراتٍ من صور عبد الحليم حافظ تحت المطر، كان سيد الحب قد توارى منذ أسبوع، وكانت الصحف تنشر صور الفتيات

Telegram: electronic_library

اللواتي رمين بأنفسهن من الشرفات حزناً عليه... أما اليوم... إنني لأعهد أن أحداً لن ينتحر لو مات المطربون كلهم في ليلة واحدة.

وعندما تلاشى الرنين الأخير في الفضاء، ضجت الصفوف بأصوات الفرح، وتدافعن إلى النوافذ ومن الوجوه يتدفق فرح غامر بالحرية، كأنما كن في باستيل. وفقط أولئك اللواتي يدركن جوهر الحب توردت وجناتهن عندما رأيننا.

بريق البحر، ورذاذ المطر المتساقط على سيقان الطالبات الخجولات، رافقا أرتاب الفتيات على الشاطئ... ضباب المراهقة يلفح الوجوه، شذا الصبا، أغاني البرد، مزامير البراءة، حقائب وأسرار ودرب طويل تحت المظلات والسحب الرمادية.

وكان قلبي يخفق: أين الغريبة... أين؟ أين سيدة المطر...؟ هل ألتقي بها على حين غرة؟ هل أتناول يدها وأقبلها بخشوع؟ أخذتْ نظراتي ترصد كلَّ العيون، وتنسدل على شحوب كل الوجوه. كان مشهدهن قد أغرق خواطري كما يفعل المطر في بذور الأرض، وكنت أنتشي، وروحي تتبلبل، ونفسي يغشاها الترقب. وقلت ماذا لو كانت ترقبني، وتخشى أن تقترب أو تومئ، وطربتُ للفكرة وطفقت أغني مدمدما.

تبدو كأنْ لا تراني ... ومِلءُ عينكَ عيني
ومثل فعلكَ فعلي ... ويلي من الأحمقينِ[1]

وكان مطر نيسان قد أشاعَ غبطةً وشبقاً حتى بين راهبات مارات، وتجول الرعد بين الغيوم، فتتالت الضحكات وكأن العاصفة

(١) الأخوين رحباني

Telegram: electronic_library

تدغدغهن، وأخذن يعبرن من مفرق إلى مفرق ويتوزعن في الشوارع، مخلفات الشاطئ وراءهن وأكملَتْ شفتاي:

تمرُ قفزَ غزال بين الرصيف وبيني
وما نصبتُ شباكيَ ولا أذنتُ لعيني

وأقفر الطريق إلا من المطر، وبقيت وحدي... أنا والبحر وباب المدرسة... وتقدمت ونظرت إلى الباحة الخالية... والموج يلهث ورائي، وتأملتُ بحزن وقع رذاذ الربيع على أرض الباحة الغريقة، وقادتني قدماي إلى الصفوف، وكانت لا تزال تعبق برائحة الطالبات الحبيبات، وكتبتُ على اللوح بلوعة مكملاً الأغنية:

مولايَ لم تُبقِ مني حيـاً سوى رمقينِ

وجلستُ وحيداً في الصف الخالي، ونظرت إلى اللوح وقرأت البيت من جديد، وتساءلتُ تُرى من منهن مولاتي؟... إن شبحها يطوف حولي... وفجأةً تسمرْتُ مكاني إذ سمعْتُ وقع خطا من نهاية الدهليز: إن الآذن يقترب، فتواريت... وخرجت من المدرسة، وظل المطر يتساقط وظللت وحيداً في الشوارع...

كان الفتى الغريب بجانبي، بين الفتية، في مكان ما... ولكنه كان في ذلك الزمان لا يزال شبحاً.

ووطئْتُ حديقة المنزل ووقفت بذهول أمام السنديانة، وهي تعانق الرذاذ والغيم، كأنما أراها لأول مرة، وكانت والدتي ترنو إلى وجهي بفرح، ووالدي يهتف: هل تبللَتْ ضلوعك بالمطر؟... ما همني وقلبي يختلج، ما همني وشيء ما في داخلي مخمور، وعيناي صافيتان وصدري مزهر.

ولم أتناول من طبق الغداء سوى حبة رز واحدة، تماماً كما كان

Telegram: electronic_library

يفعل بوذا، وعندما هجم عليه الفيل هزمه بوذا بالحب، هكذا كانت حياتي الجسدية مهزومة من حياتي الروحية، وكنت أتمنى أن أظل في ذلك الهذيان الحالم كل عمري، فإن مت يكفيني جداً أن يهذجوا بأنني كنت أحب روزالين، وعطر ذلك الغرام يشيع من زمن إلى زمن.

Telegram: electronic_library

- ٣ -

أدورُ علـى الأبـواب مـن غيـر حاجـةٍ
لعلـي أراكـم، أو أرى مـن يراكـم

ما كان أشبه بيت ابن الفارض بحالي في ذلك الزمان! لقد رحل الشتاء دون ثلج، وهطلت أمطار الربيع فوق البحر، وقبل أن يلفح المدينة حر الصيف، لم أُبقِ مدرسة لم أنتظر خفيةً انصراف فراشاتها، وروحي مشغولة بتنسيق ألوان ثيابي وتسريح شعري، حتى كنت أضع مرآة في جيبي، ورغم أن ابتسامات الطالبات المتطايرة كانت تملؤني بالحبور، إلا أن الغريبة كانت لفؤادي الحب الكبير... ولأن معرفة بيتها بدا شبه مستحيل تراءى أنه ليس لي سوى العودة إلى الدموع.

عندما تكون مراهقاً، فسماؤك نظيفة من كل الغيوم، عندها تشرق شمس المحبة متألقة... لقد ارتأيتُ أن احتفظ في جيبي برسالة، عسى أَنْ أعطيها إياها خلسةً، فقد تمر بي كما الريح، بين زميلاتها أو والديها، وتتوارى فجأةً من جديد. رسالة ظللت أكتبها سبع سنين... وإنني إذ أخرج مسودتها، الآن من أضابير الذكريات، أعرف أنني كنت أدونها ليس لها وإنما للحب.

ويوم الامتحان ما قبل الأخير، عشية إقفال المدارس، في زحمة انصراف الطالبات تبدت فتاة بشفتين ساحرتين... ولكنني سرعان ما

Telegram: electronic_library

ميزت الفم المائل على هيئة ابتسامة، واشتعل قلبي: إنها هي... إنها هي... ورحت أرمق عينيها وهي تفيض فرحاً... وتتحدث طربة بين أرتاب البنات متلفتةً يميناً وشمالاً، تُلوح الريح شعرها راسمةً دائرة على جبهتها... فتواريت حتى لا يلمحنني، وتبعتهن وقلبي يخفق حتى تفرقن، ورقيق نظراتي تستملي من مزاجها وتقلبات تعابيرها، وعلى فمي ابتسامة فرح غامر... ثم تبعتها وحيدة... ونفسي تهتف: قل شيئاً... قل شيئاً... ولم أقل... ولم أقل... حتى دخلت إحدى الأبنية واختفت.

وفي اليوم التالي وقفت أنتظر راجفاً في المكان الذي تصبح فيه منفردة، وفي يدي زهرة، والحب يكلّلني من رأسي إلى أخمص قدمي، والبحر من بعيد يهدر، وقلبي يرتعش، والزهرة على وقع الموج ترقص بين أصابعي، وفجأةً مرت مثل نسمة باردة في يوم قائظ وأثلجت ضلوعي، وألقيت عليها نظرة جعلت وجهها مطمئناً صافياً، فنظرت إلي بفرح، ثم ترددتْ بقلق، فقلت:

ـ منذ قدمتِ لي الزهور والعالم يدور بي ويدور.

فأخذَتْ تغرق في عيني... متأملةً سحنتي كأنما تختبر مدى صدقي، ونطقَتْ بصعوبة:

ـ إنني أراكَ منذ زمن... وفي عيد الحب...

وأخذَتْ ترتعش

ـ ما اسمك؟

ـ روزالين.

ـ ضعي هذه الوردة بين خصلات شعركِ فتبدين أكثر جمالاً.

Telegram: electronic_library

ـ أنا لا أريد أن أكون جميلة... أريد أن أحبك فقط!

ـ أرغب أن أعطيكِ هذه الرسالة أيضاً لتعلمي كم قلبي يخفق.

ـ إن عينيكَ تقولان كل شيء.

وفجأةً انتبهَتْ أنها قريبة جداً من الحي الذي تقطن به، فانتابها التوتر من جديد، ووضعَتْ يدها على زر من ثوبها وانتزعته بعصبية:

ـ أبقي هذا ذكرى لديك إن كنتَ تحبني!

ـ سأحفظه غير بعيد عن قلبي.

وتوارت كطير استشعر صقراً يحوم في الفضاء. ونظرتُ إلى الزر بشغف، وأطبقتُ كفي، كأنما قلبها في راحتي، وأُغرمتُ بكل شيء مررت به في الطريق، واستخفني ميل قوي إلى أن أحب كل امرءٍ حولي، لقد ابتسمتُ إلى الناس كما لم يحدث في يوم من الأيام، وخلتهم قريبين إلى فؤادي، وودت لو أغمرهم بالقبلات، متذكراً بيتَ لشاعر مجهول:

إن حبكــم مــن حبهــا، وأخالكــم
تقولـون لـي: مـت يـا شـجاع بها عشـقا

وأحببت حتى حشرات الأرض... وأسماك البحر التي لم أرها خلتها تتدفق بالحياة وترقص مرحة بين الأمواج، وسحرتني الأشرعة البيضاء، وسحب الشاطئ، والمياه العميقة... كأنما أراها لأول مرة... وصحت والموج يتدفق حتى قدميَّ: أحبكِ... أحبكِ يا روزالين... وغنيتُ فارداً ذراعيَّ معانقاً المدى: كم أنت رائع أيها العالم، يا أغنية من السحر، يا قصيدة من نور.

Telegram: electronic_library

عندما يحب المرء يولد دائماً من جديد[1]، لقد قرع الحب نافذتي صباح ذلك اليوم، وعندما فتحتها رأيت الكون أعمق، يغوي القلب، بدرب مخملي من الحنين، درب إلى المطلق بين الأشواك والوحول.

ولكن ما إن صرت بين البيوت، في ساحة حيها، حتى دهمني رجلان، أشار أحدهما إلي بصوت مفاجئ صائحاً: هو ذا... هو ذا، فركضت مبتعداً كمن يتفادى سيارة مسرعة، فزعق الآخر مكفهراً: توقف يا ابن الزانية... مما أسمع الحي بأكمله فخرجوا إلى الشرفات يرنون إليه وهو يطاردني مزمجراً: يا ابن العاهرة... يا ابن الزنى... فطرتُ حتى ظننت أنَّني اختفيت وأنا لا أدري ما الخطب.

أما روزالين فما إن وصلت إلى المنزل حتى دخلت غرفتها بغرابة وأقفلت الباب، تاركة الحيرة على وجه والدتها، وفضت الرسالة وأخذت تقرأ بعينين كئيبتين فجرهما الفرح فراحت دموعها تتساقط على الوسادة، التي ما لبثت أن دفنت وجهها فيها، فأيقظها طرق خفيف على الباب من مبكى بهيج، فنظرت إلى الرسالة... وراحت تكتب: «لقد داعبَتْ قلبي أحلامك فاستيقظ كطفل بريء». ولكن الطرق راح يزداد فكتبت: «لقد كنت حزينة وسعيدة أما الآن فأنا في مرقد من الأحلام والمجامر والانتظار». وتناهى إليها صوت الوالدة تقول: روزالين... هل أنت بخير؟ فدونَتْ: «لن أحدثكَ عن عذابي، فلم يبق من تلك الأيام الهاربة كسفر العصافير سوى حبك»، ولمحَتْ ورقة بيضاء تندس تحت الباب، ثم دفعت والدتها المفتاح من ثقب الباب كعادتها فسقط عليها، فسحبتها وفتحت الباب، ونظرت روزالين من النافذة وأكملت: «صحيح أن الربيع قد ولَّى ولكنه بدأ عندي وأنا

(١) مَثَلْ

Telegram: electronic_library

أقطف تلك الزهرة الحمراء من يدك»...

ـ روزالين ماذا تكتبين...؟

قالت الأم وهي ترنو إليها بدهشة:

ـ أنسيتِ موعد الغداء؟

ـ فيما بعد يا أمي... فيما بعد!

ـ ما بك؟

فاسترخت من جديد، وهمهمت متنهدة ناظرةً إلى السقف، ويدها فوق جبينها.

ـ نعم ما بي... أتدرين أنت ما بي... منذ أعطاني هذه الوردة وأنا لا أدري ما بي يا أمي!

ـ وراء السراب منذ كنتِ صغيرة يا حبيبتي... إنسيه... نحن في مجتمع محافظ.

فأجابت هائمة:

ـ نعم نسيني إياه يا أمي... نسيني... إنه بلياليّ يعيش من قبل أن أولد... نسيني كيف ترتعش خصلات شعره على عينيه الصادقتين... نسيني كلماته المسكرة ووجهه المفعم بالطمأنينة.

ـ لا يجب لمثلك أن تذهب إلى المدرسة وحيدة.

فاستمرت هائمة:

ـ أنا لا أريد أن أذكر كيف انقلبت الأرض إلى فردوس من السحر عندما فاجأني... وكيف تُسري الحب في أوصالي نظراته المقدسة...

ـ أووه... لقد تجاوز الحد عماد هذا... سأتصل بوالدته.

ـ ليس عماد سوى صديق الطفولة يا أمي... وليس بحبيب.

Telegram: electronic_library

ـ من تقصدين؟... مع من تحدثت إذن؟

ـ من فضلك يا أمي اتركيني وحدي هنيئة ولو للحظات من العمر.

ـ مع من تحدثت إذن...؟ سأخبر والدك.

ـ مع الفتى الذي هو حياتي كلِّها يا أمي.

ـ وقد قلت من قبل أن الموسيقا هي حياتك... وقبلها كان نزار قباني هو معبودك، من سراب إلى سراب ويحك يا ابنتي... إنه لا يحبك بهذا الوله تأكدي.

ـ ماذا يوجد خلف نظراته الحالمة الصافية إذن!؟

ـ أتذكرين عندما سألتني مرةً عندما كنت صغيرة ماذا يوجد خلف أفق البحر يا أمي، هذه مثل تلك.

ـ نعم هذه مثل تلك... أصبحا لغزين.

ـ هيا... هيا إلى الطعام يا ابنتي، إنني على الأقل لا أقدم سراباً على المائدة، هيا... كيف كان امتحانكِ؟

وفجأةً، نهضت من السرير، وانقضت على الرسالة من جديد، وكتبت: «نبئني إن كان ذلك كله صدقاً يا حبيبي... أصحيح أنك لا تزال تذكرني منذ أهديتك باقة الياسمين... أصحيح إذن أنك لم تنس برق عيني منذ عيد الحب ذاك، وأنك كتبت رسالتك قبل أن يولد حبنا بكثير...!؟ نبئني إن كان ذلك كله صدقاً يا حبيبي...».

Telegram: electronic_library

ـ ٤ ـ

أما أنا فما إن وصلت إلى البيت لاهثاً حتى تناهى إلى أذني طرق شديد على الباب، فخرجَتْ أمي مستغربة، وإذ بها تُفاجأ برجل يسيل منه الغيظ، يلعلع صوته والزبد يتكدس بين شفتيه، فاضطربَتْ نفسي بشدة، وانكمشتُ في الغرفة، وصوته يدوي:

ـ أين هو؟

ـ لم أفهم ما الذي فعله بحق الإله!

ـ لقد احتك بابنتي بصورة ما... وأعطاها رسالة على مرأى من الناس.

ـ لعلك مخطئ يا ابن الحلال.

ـ أخرجيه مثل الكلب قبل أن أجلب الشرطة.

ـ عد إلى العشرة من فضلك.

ـ أقول لك سأجلب الشرطة إلى هنا... لقد رآه الحي كله.

ولم يغلق الباب حتى خرج الجيران ونزلوا من فوق وصعدوا من الأسفل، عندها هرعَتْ أمي إلى سماعة الهاتف واتصلت بوالدي في صحراء تدمرين، حيث كان يعمل في حقول النفط. وسمعتها تقول: «وماذا لو صادفه مخموراً... ووجدنا ابننا مذبوحاً ذات يوم»... ثم

Telegram: electronic_library

أُقفل الخط، ووجدتها تدخل إلي، وقبل أن تسألني قالت: سأحزم حقيبتك... غداً سترحل إلى تدمرين.

كان والد روزالين كما روى الجيران من أولئك المسعورين المولعين بالخمر، الحادي المزاج الذين لا يتورعون عن ارتكاب جريمة قتل لأمر تافه. وكان يحدس أن ردة فعله الصاخبة غير الواعية وصراخه المتشنج في ساحة الحي تحت الشرفات، سيجعل الألسن تتناقل أن الفتاة قد تكون فقدت عذريتها، فقصد بيته وقد جن جنونه.

ولكنه بدلاً من أن يدخل إلى روزالين، انقضَّ على الأم والشرر يتطاير من عينيه، وكانت روزالين من الغرفة الثانية تُصغي وتبكي... كانت أشقى لحظات حياتها وأكثرها مرارةً منذ كانت صغيرة، عندما تسمع والدتها تصرخ في الغرفة المجاورة بينما ينهال عليها والدها بالضرب والكلمات القاسية، وهي عاجزة عن فعل أي شيء، وها هي التراجيديا تبدأ الآن من جديد.

فما إن لمحت الأم وميض عينيه حتى أدركت أنه على حافة الجريمة، همس الجنون يتطاير زبداً من شفتيه قبل أن ينطق:

ـ أريد أن أفهم هل الناس أو الدين أو الشرطة يسمحون لابنتك أن تستدرج شاباً إلى الحي...؟

لقد أدرَكتْ كل شيء... يا لحظ البنت... هل رآهما الناس؟

ـ ما الذي حدث بحق الشيطان...؟ الناس قوَّالون كذابون.

ـ ولكن أنا الذي أقول، وقد ركضتُ وراءه بعد أن رأوهما... وفي المرة القادمة لن يفلت... ولكن ماذا... ما الذي أفعله بك... هل أحرق البيت كلَّه وأرتاح منكما ومن نفسي...؟

Telegram: electronic_library

ـ اهدأ... لعله أخو صديقتها في دار الألحان.

ـ وهل سمحت لها أن تنتسب إلى فرقة موسيقية؟ إنها لا تكاد تعثر على سراب حتى تصبح مهووسة به، لقد تعلمت الموسيقا وما لبثت أن أصبحت عبدة للكمان، ثم أحبت الشعر فغدت تقضي الليالي مستيقظة متبحرة في الكلمات، وها أنت تجدينها الآن وراء النافذة شاخصة البصر إلى لا شيء... وأردف:

ـ ولو أنها تتعلق بكتبها... لو أنها تنكفئ إلى موادها الدراسية... لو أنني أستطيع ضربها حتى تدمى... لو أنني...

ـ لا... تذكّر... أنّ الطبيب الذي شفاها من الاكتئاب قال إنها لن تتخلص منه ثانيةً إذا انتكسَتْ...

ـ فكيف تريدنني أن أهدأ...؟! إن قصة حب تُنسج الآن وتنتقل من بيت إلى بيت كما تفعل كرة النار في الهشيم.

ـ وبسببك أيضاً... ومع ذلك اهدأ... لكل شيء حل... لكل شيء حل.

ـ لا أبوها على هذا النحو ولا جدها... إن هذا السرحان الغريب ليبعث على الدهشة، إنك ما أن تقولي لها أن ثمة غجرية تقرأ الكف في نهاية الشارع، أو نبي يتنبأ في مكان ما في صحراء، حتى تترك كل شيء وتتبعه... هل يوجد لدرب الجنون هذا نهاية؟... لقد أعيت الطبيب نفسه.

ـ إنك تكبر الموضوع.

ـ ولو صغرته سيستمر انتشار الشائعات فلا تجد عريساً.

وكانت الأم تهز رأسها ثم تتركه مطرقاً، كأنها عالمة مدركة كل

Telegram: electronic_library

شيء: لقد جعل صراخه المتواصل المنزل أشبه بمقلع حجارة منه ببيت، إن ديكتاتوريته سبب كل حماقة، فهو داخل مثل عنترة وخارج مثل أبي زيد، لا يقر له قرار.

ولكنه اقترب منها موجهاً إبهامه إلى وجهها:

ـ إن حماقاتها تلك من حماقاتك أنت، وقد ظللتِ يوماً تنظرين إلى السماء أربع ساعات، وعندما سألتك أجبت: إنني أبحث عن أمل ما هناك، وعلى هذا النحو كانت جدتها، فقد ظلت ترسم وترسم وترسم وتحدق في الأشياء حتى أصبحت الألسن تلوك أنها رسمت القبر بعد موتها...

وحاولت الابتعاد صارخة:

ـ تنحَّ عني لا تلمسني.

فسقطت مزهرية على الأرض وأحدثت ضجيجاً خطراً... أما روزالين، فقصدت المطبخ وانتقت أكبر سكين معلقة هناك، ووضعتها على يديها الاثنتين، كمن يحمل كفنه، وتقدمت من أبيها وقد بدا جاحظ العينين وقالت:

ـ سأقول لك فقط إنني أحبه... وهذه الأداة كافية إن أردت قتلي.

فتجمد في مكانه لبرهة، ثم انفجر بالدموع وقد طاش صوابه، ضاماً ابنته بين ذراعيه:

ـ كيف سأقتلك يا حبيبتي... أنت عندي تساوين الأرض كلها.

لقد حدس أنها ورثت عنه تهور الطبع وتطرف الرأي تصحبهما عاطفة حتى البكاء، فصمت، وأعادتها أمها إلى حجرتها ملاطفةً، وهي تمسد شعرها:

Telegram: electronic_library

ـ لا تنقمي على والدك يا عزيزتي... أنا أعلم أنه حطم لكِ قلبك... ولكنك لست ممن يحملون الضغائن... فلك قلب مترع بالبراءة، أكثر عذوبة من كمانكِ، وأكثر بريقاً من الذهب.

ـ إن قلبي لم يتحطم أبدّاً يا أمي لطالما هو يحبني.

ـ وماذا يعني أنه يحبك!؟

ـ يعني أنه يحبني يا أمي... يحبني.

ـ تأملي ابنة عمك وقد فازت بعريس ثري ليس ذلك إلا بسبب سمعتها الحسنة.

ـ ابنة عمي عابسة يابسة لا تتدفق بالحياة، وأنا لا أتمنى أبداً أن أكون مثلها ليأتيني عريس غني.

وفي اليوم التالي أظهر فحصها اضطراباً في النبض وتسرعاً، وخشي عليها طبيبها فعلا من السقوط في اكتئاب جديد.

والحقيقة أن شائعة الحب تلك كانت تتدحرج بأسرع مما قدر الأب المتشائم ككرة ملتهبة فوق منحدر من القش، حتى طالت الأم، وابتلعت البيت كله، ولم تكن لتطفئها عبارة «مراهقينَ طائشَين» فالكثيرات ممن هن أصغر منها عندهن ولدان، لم تكن كرة النار لتنطفئ حتى تصل إلى المياه، وكانت تلك المياه بالنسبة للأب هي إلحاق نفس الأذى بالمراهق، بحيث يدري الحي واحداً واحداً أنه رد اعتباره.

ولما كان للأب أعداء وللأم من يريد الكيد لها، كأي مجتمع منغلق يفتقد إلى العلانية والتحاور والصراحة، فقد أخذوا يصبون الزيت على النار، وهم لا يدرون أن قلوباً تحترق، ونفوساً بائسة

Telegram: electronic_library

تلتهمها الغيرة والأقاويل، ومن كل هذا لم أكن أدري شيئاً عندما كنت في تدمرين، سوى أن الأب قد قرر أن يذبحني من الوريد إلى الوريد.

ولكن مجيء عم الفتاة من «عين الراهب» وهي قرية أسفل مرمريتا[1]: ونصْحَهُ أخاه بقضائه الصيف هناك، حيث سينزع أهالي القرية إلى إقناعه بترك المدينة إلى الأبد، وسيظهر أنه اقتنع، ما سيجعل السر يدفن تحت أرض عميقة... ورغم أن الحياة لن تكون رائعة بالعودة إلى قريته، بعد أن فعل المستحيل للهجرة إلى المدينة، إلا أن الأب حزم الحقائب وباع البيت، وهاجروا دون أن يترك دليلاً إلى أين.

وعلى وقع سم الحب هذا، وجدت روزالين نفسها في منزل يطل على المدى من جهة، ويجانب عابري السبيل من الجهة الثانية، نائمٌ على الطريق، ونائم قربه الزمان.

ورغم أن تحرير المرأة، وتحليل فرويد النفسي، والثقافة البدنية، كانت قد بُدئ بها في ذلك الزمان، إلا أن النساء كنَّ خمسة أقسام: الأول متجلبب بالسواد حتى الأصابع والكاحل، والثاني قرينه دون غطاء للوجه، أما الثالث فيكتفي بحجاب أبيض للشعر، والرابع دون أي نوع من الخمار ولكن بملابس محتشمة، أما القسم الخامس الذي غالباً ما انتمى إلى العائلات الثرية أو العائلات الجريئة من المثقفين، فكن يظهرن صدورهن ويرتدين الميني جيب، ويذهبن إلى السينما ويجلسن بين الرجال. وكان الشبان أيضاً خمسة أنواع، فالأول متورط بالعادة السرية من رأسه إلى قدميه، والثاني يلتهمه

(١) بلدة سورية في المرتفعات، قرب قلعة الحصن

Telegram: electronic_library

اللواط ومختلف أنواع التشوهات الجنسية، والثالث يغوص في وحل المواخير والعاهرات والسيلان، أما الرابع فيلوذ بالحب العذري، ويقابل النوع الخامس، الفتيات الواسعات الثراء، ويمارس الجنس معهن بانطلاق وحرية، وتارةً بالسر، حيث يُجرى للفتاة عملية إعادة بكارة قبل الزواج، وغالباً ما تُلتهم من الخلف فقط... ومثلما تختبئ شبكة صرف القاذورات تحت الشوارع النظيفة والمتاجر والمنتزهات، هكذا كانت تجري حياة الشباب الجنسية تحت السطح الأخلاقي للمجتمع، حيث يشعر المكبوتون أنهم مدنسون ليس فقط جسدياً بل روحياً أيضاً، كانوا في كل مكان يبحثون عن المسالك المجهولة، وكوى الجدران، والطرق الملتوية، وكان من النادر أن تجد مرحاضاً أو سوراً غير ملوث بالكلمات والرسوم البذيئة، كان قناع الأخلاق الديني الذي ظُنَّ أنه يستر كل هذه الأشياء بالياً مليئاً بالخروق، نَسيَ تماماً أننا إن أغلقنا الباب والنوافذ دون الشيطان فإنه يدخل من المدخنة، تماماً كما يقول فرويد: من يكبت وعي الرغبات الطبيعية لا يخفق فقط في التخلص منها، بل يزيحها إزاحة خطرة إلى العقل الباطن.

وإنني الآن، بعد ثلث قرن، إن جئت أتفحص معالم الأرض التي خطوت عليها، منذ عهد الطفولة، أرى أن الازدياد التدريجي للفقر والتخلف والتفجر السكاني، في الأمة العربية، أدى إلى ازدياد الغيرة الفطرية الوحشية للرجال. الغيرة التي مردها الأسلاف حتى الإنسان الحجري، مما جعل الفتيات يتسابقن إلى الحجاب أكثر لكي ينافسن في سوق الزواج بثقة أكبر، قبل أن يفوتهن القطار، وينتهين إلى أدوات ملقاة على الرف، لا يعرفن كيف يخفين رغبتهن في الحب والأمومة بسبب اضطراب أعصابهن، وقد كان ذلك أشد ما خشيه

Telegram: electronic_library

والدا روزالين، كانا يدركان أن السمعة لا يمكن ترقيعها كغشاء البكارة، فلاذا بالصمت ورحلوا مطرقي الرؤوس كالمجذومين.

أما أنا فقد لذتُ بالبحر في الليلة الأخيرة، وظلت تتراءى لي روزالين مبتسمة بشفتيها الآسرتين المائلتين، إن أي رحيل لها كان سينتزع من فؤادي إشراقة الصبا إلى الأبد، ولكنني لم أكن أدري، تمددتُ قرب زبد الموج، وتركته يغمرني ثم ينحسر... نوبة بعد نوبة... كان ذلك يخدرني... ولا أعرف كيف تمنيت أن يبتلعني في عبابه اللانهائي، كأن أصبح جزءاً من المطلق.

Telegram: electronic_library

- ٥ -

عندما استيقظت كانت الديكة تصيح، والفجر البخيل يُغدق خيوطاً واهنة على العتمة، وكانت الأشجار لا تزال أشباحاً، وأصوات البلابل تملأ الأرجاء وتختلط مع أصوات الديكة الصائحة. كان هواء حزيران ساخناً، وأفقر الناس هم الذين استيقظوا وهرعوا إلى أعمالهم. وكان رأسي يدور عندما أجلستني والدتي على مقعد في الحافلة المتجهة إلى تدمرين قائلةً: لا تنسى وجهتك «باب هوود» وذهبَتْ لتقطن في منزل والديها مع أختي الكبيرة، وشيئاً فشيئاً بدأ يلوح قرميد البيوت، وينكشف لون الأشجار، والصباح يدخل.

وأخذَتْ الحافلة تهدهد جسمي وتغريني بالنوم من جديد... وأسندتُ رأسي إلى الزجاج ودمدمتُ: وداعاً يا روزالين... وداعاً... وأخرجتُ الزر من جيبي ونظرت إليه: أكنتِ تحدسين أن الحب ليس سوى فجيعة... وأن الحبيبة السعيدة ليست أبداً الحبيبة العربية...؟ ولكن شمس الظهيرة المحرقة أخذت تصب أشعتها اللاهبة من النوافذ وتوقظني من تأملاتي، حلَّ حر مرعب ذلك اليوم، وكلما اقتربنا من الصحراء كانت ألسنة اللظى المتراقصة تسوط الوجوه، الوهج يُطبِق على الطريق، والنور الحاد الوحشي يعمي الأبصار، وتصاعد الدخان من شيء ما يحترق من بعيد، وبدت المنازل تتلظى.

عندما تركتني الحافلة في تدمرين خلَّفَتْ وراءها ضباباً من الغبار

Telegram: electronic_library

لم ينقشع للحظات طوال، تبين بعدها رجلٌ بجلباب أبيض... وحمار ذا بردعة جميلة جديدة ملونة، يجره فتى ذو ملابس خرقاء، كانت رمادية منذ زمن طويل، أما الآن فتبدو كسواد الليل، يفضح لونها الأصلي بقع الجيوب المقطعة، وكان الغلام شديد السمرة، منهك الوجه كأنما في الستين، يختال الحمار بجانبه واثقا من نفسه ومظهره. وتبدت أيضاً امرأة تتعثر متشحة بالسواد، رفعت حجابها للحظات لتتبين في أي مكان ألقت بها الحافلة، ورأيت خروفاً يسير بمفرده، وشيخاً يمتطي دراجة بالية ملفعاً بجلباب وأردية صحراوية، وكان الجميع متجهين نحو سوق هوود، وكانت شواظ الشمس المجنونة قد جعلت عينيَ زائغتين، فوضعتُ كفي على جبهتي وسرت بخطى طويلة قاصداً الظلال، حتى وصلت إلى بوابة مهدمة وغريبة كُتب عليها «باب هوود» حيث أخذت أنتظر، وقد دُونَ على حائط أمامي «ملعون ابن ملعون الذي يبول في هذا المكان... وشكراً»...

كان صفاء السماء بلا بهاء ولا لون، كأنها على هذا النحو منذ قديم الأزل وستظل هكذا إلى الأبد، وعلى مصطبة في مدخل السوق خلع أحدهم حذاءه وجواربه، نفضها أمام المارة وأعاد لبسها من جديد، وعبر أمامي شاب يحمل رغيفاً مُلئَ لبناً وزيتوناً وغباراً، مسرعاً متفادياً الزحام، تبدو قدماه المتعرقتان أكثر سواداً من لون الصندل، وإلى حانوت جلس رجل مغولي لم أستطع تحديد عمره يشير بيديه ويلغو، وآخر يشبهه يمارس العادة السرية إلى حائط، وبدا جانب الخضار أكثر ازدحاماً، فقد ترك البائعون مخازنهم ووضعوا الخس والفجل واللفت والفول وغيره في منتصف الطريق بين أرجل المارة... وبدا أحدهم يغمس إصبعه في طنجرة اللبن ويتذوقه قبل ابتياعه... عمامات وسبحات وشوارب... نساء متشحات بالسواد

Telegram: electronic_library

ومتسولون وبهائم... وملابس غدت رمادية من الغبار والأقذار... وفجأة مرت سيارة البلدية وملأت الجو بضباب من المبيدات... وبدأتُ أشعر بالدوار... وخيل إلي لو أن رجلاً في ذلك السوق رفع صوته وصرخ: أنا ملك الجان قاهر الملوك والفرسان، لما استغربت، أو عفريت قال لي: شُبيك لُبيك عبدك بين إيديك لما تعجبت. وأخذتُ أتلفت يمنة ويسرة بينما علا صوت الآذان ضجيج الجميع.

وعدت أقرأ: ملعون ابن ملعون الذي يبول في هذا المكان... وفجأةً وصل أبي فارداً ذراعيه، وبادرني بحنان ضاماً إياي:

ـ ما الذي فعلته يا ولدي...؟

ـ جئت أسألك نفس السؤال... ما الذي فعلته يا أبي؟...

وصعدنا إلى سيارة أجرة، أخذَتْ تتعثر وتتثاقل وسط زحام المارين، جلس أبي قرب السائق وقال:

ـ على وجهك ألف حكاية... كيف كان الامتحان؟

ولم أنطق بشيء... فالتفت إلي... لقد كنت أبدو كأنني أُشوى، وألسنة اللهب تلسع حلقي، فأوقف بائعاً للسوس، وأخذنا نشرب والسيارة تسير، والبائع يتبعنا، وأعطيناه الكؤوس الفارغة والذباب يدخل من النوافذ من جهة ويخرج من الجهة الأخرى، وقلت:

ـ لماذا يتمنون لي الموت في الوقت الذي أتمنى لهم النعيم؟...

ـ سأذهب يوم الجمعة كالعادة وأرى.

وأخذتُ أقرأ لافتات المخازن. حلويات أبو كاسر، مقهى أبو ضرغام، ملحمة أبو صخر... صنادل وشوارب وشمس محرقة...

Telegram: electronic_library

صنادل وأسمال وعرق يتصبب... صنادل ووجوه معتمة يتطاير منها الغضب... وفجأةً تحرشَ أحدهم بامرأة فعلا الصراخ والضرب من ناحية، بينما وسط الفقر ذاك توقفت مرسيدس فاخرة، وترجلَتْ منها امرأة سافرة لفتت الأنظار فبدا السوق كله ذاهلاً. وما إن غدونا على الطريق السريعة حتى أخذ الهواء يتدفق من النوافذ شلالاً لا يخبو من الحمم. وعندما دخلنا مساكن الشركة النفطية، اكتشفتُ لأول مرة في حياتي المكيفات، حتى خلتها في ذلك الجحيم ضرباً من السحر.

وجاء المساء ثقيلاً خانقاً حتى خيل للناس أن الضياء المبهر للقمر هو الذي يشوي البيوت، بينما كنت لا أكف عن التلفت إلى المكيف، متأملاً البلدة من زجاج الطابق الأخير، وقد لحظ أبي ذلك فقال:

ـ إن العلم يوصل إلى الخلاص.

وعندما تمددتُ على السرير لأنام اكتشفت فتحة غريبة للتهوية في السقف، أطلتْ منها نجمة ساطعة، قال أبي إنها نجمة القطب، ولكنني أسميتها روزالين. وعندما دهمني بالتفاتة أسبلتُ جفوني حتى لا يراها مخبأة في عيني، ودمدمتُ وأنا أغفو، يا نجمة المساء... يا أشد النجوم اشتعالاً... فقط أنتِ من ينير حياتي...

ولكن لم تمضِ ثلاثة أيام حتى لفتني الكآبة، وقلت لوالدي إن الحب لا يمكن أن ينبت في هذه البلدة، وفهم كل شيء وصمت. وفي اليوم الرابع قال لي أن ثمة منتدى اسمه «مقهى هوود» سنذهب إليه كل مساء.

كان يحدس أنني لا أشعر بالسكينة إلا في حضرة الفن، ولا بالفرح الأعلى إلا في أحضان الحب. وكان مقهى هوود يقصده الغاوون

Telegram: electronic_library

كما يتندر أهل الحي، نسبة إلى الآية «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمون». وكان يعلم أن تدمرين التي تستبد بها شمس مروعة ليست سوى مرتعاً للأمية التي تعلن للجميع أن أحداً لن يستطيع العيش بصورة غير مرعبة، إنها تدفع الجميع إلى الانتحار بصور مختلفة، إنهم يضعون سكاكين الجهل الطويلة أمام أعينهم وينظرون إلى بريقها بجنون غريب، كأنما يشعرون أنها الحل الحل الوحيد، إنهم يدمون أنفسهم كل يوم، يخمدون تلك النصال بطرق فظيعة من جنبات مرعبة متباينة من ضمائرهم، فيبدو التشوه على الوجوه مطرزاً بعذابات عجيبة. كان والدي لا يدعني أتجاوز سور الشركة أبداً، وكنت أصلاً في غضبة الشمس تلك أصاب بغيبوبة حتى في ساعات الصباح الأولى.

وقبل أن ندخل مالَ أبي إلى مكتبة هوود. لقد رغب أن يبتاع لي كتاباً حتى لا يتحول سور شركة النفط إلى قفص:

ـ هل عندكم هنا كتب ؟

سأل أبي

ـ لدينا كتب خمسون صفحة، ومائة صفحة ومائة وخمسون.

وبدا على وجهينا الفضول.

ـ حسناً أرِنا.

وأخرج البائع دفاتر من مختلف القياسات.

ـ نقصد كتب! روايات وفلسفة وشعر.

ـ لا.

ـ أين يوجد في تدمرين؟

ـ يوجد في تدمرين المخدرات والمسدسات والعاهرات، أما أين يوجد كتب فلا أعرف.

Telegram: electronic_library

بدا مقهى هوود معتماً بعض الشيء وفسيحاً جداً، مما يجعلني لا أذكر ما الذي كان يجري في أرجائه، ويبدو أن والدي كان يتوقع أن يكون الجميع في ثياب أوروبية، إلا أن معظمهم كان في ملابس صحراوية، وكان ثمة رجل صامت يجلس وحيداً إلى منضدة أمام شجرة خضراء وراء نافذة مفتوحة.

وفجأةً هبَّ من مكانه، تأمل الجميع، واقترب مني، كان يرتدي جلباباً أصفر وعلى رأسه قبعة مهرجين، وصاح بصوت أسمع المقهى كله وقد رآني مكتئباً، أتلفت يمنةً ويسرة ثم أُطرق برأسي:

أيُ هذا الشاكي وما بك داءٌ كيف تبدو إذا غدوتَ عليلا[1]

فنظرت إليه ثم أطرقت برأسي، بينما بدا والدي متحمساً مبتسماً، ففرد الشاعر ذراعيه متجهاً نحو الحاضرين منشداً بصوت رومانسي:

قالـوا السـماء كئيبـةٌ وتجهمـا
قلـتُ ابتسـم يكفـي التجهـم في السـما[2]

ولم يُغير البيت في حالي شيئاً، فجرب معي التالي:

الدهـرُ يومـانِ ذا ثبـتٍ وذا ذلـلِ
والعيـش طعمـانِ ذا صابٍ وذا عسـلِ[3]

فازددتُ كآبةً، بينما نصحني والدي بصوت خفيض:

ـ تابعه...

وبينما كان موزعو الماء وجمر النراجيل وكؤوس القهوة والشاي يدورون بين الطاولات، بدا الجالسون منتبهين مصغين تغادر

(١) إيليا أبو ماضي.
(٢) إيليا أبو ماضي.
(٣) أبو فراس الحمداني.

Telegram: electronic_library

النراجيل أفواههم حالما تند كلمة عن الشاعر، الذي بدا وكأنه فطن لبيت أشد وقعاً، فاتجه إلي ناصحاً:

والجـوعُ يُسـدُ بالرغيـفِ اليابـسِ
فعـلامَ تُعَظِّـمُ وحدتـي ووساوسـي[1]

ـ ولكنه غير جائع.

قال والدي، وضحك الجالسون.

ـ إذن ما به؟

ـ إنه عاشق.

وتورد خداي، ولولا الإنارة الخفيفة لبدا وجهي أحمر مثل تفاحة، وأطرقتُ أكثر وأكثر، وبينما الجميع منتبهين إلي قال الشاعر:

ـ ويحه... إن ما به ليس قليلاً... وأين حبيبته؟

ـ ذهبت مع الريح.

فصاح الشاعر:

ونفسـي التـي تملـكُ الأشـياء ذاهبـةٌ
فكيـف أحـزنُ علـى شـيءٍ إذا ذهـبَ[2]

وغمغمتُ:

ـ أبي... دعنا نذهب...

ولكن الشاعر قال فارداً ذراعيه مخاطباً الجميع:

تداويـتُ مـن ليلـى بليلـى علـى الهـوى
كمـا يتـداوى شـارب الخمـرِ بالخمـرِ

(١) مجهول.
(٢) منجك باشا (١٥٩٨ ـ ٦٦٩ هـ)

Telegram: electronic_library

لقـد فُضِلَـتْ ليلـى علـى النـاس مثلمـا
علـى ألـفِ شـهرٍ فُضِلـتْ ليلة القـدرِ[1]

مما لفت انتباهي وجعل روحي تنهض، فنظرتُ إليه، وبدا الجميع مسرورين للابتسامة التي تبدت على شفتي، وسرَّ والدي، وقد بدا وكأنني أنا صدر الجلسة... وهمس الشاعر في أذني والدي:

ـ إنه عاشق حقيقي.

ـ أكمل... أكمل.

فأنشد برقة من يريد أن يخطف القلوب:

ويكـونُ يومٌ لا أرى لك مُرسـلاً أو نلتقي فيه، عليَ كأشهرِ
يا ليتني ألقى المنيةَ بغتةً إن يكُ يومَ لقاكم لم يُقدرِ
يهواكِ ما عشتُ الفؤادُ فإن أمُتْ يتبع صدايَ صداكِ بين الأقبرِ

آه... ها هو جميل بثينة... زدنا جوىً أيها الشاعر... أكمل... رددت في نفسي، ولكن الكهرباء انقطعت فجأةً، وأخذَتْ موتورات التوليد تهز سوق هوود هزاً، وغازاتها تتسرب على المقهى وتجعل الهواء خانقاً، فانكفأنا إلى الغرفة، ولاحظ والدي كيف أضع رأسي على الوسادة بكثير من الإعياء، وعيناي ذابلتان لاعزاء لهما سوى نجمة القطب.

وما إن مر شهر آخر حتى اكتشف أبي أنني أصبحت بحاجة إلى مهدئات لأستمر في تدمرين، وسيكون ذلك أفضل لي من العودة إلى الذبح، لقد تناهت إليه الأقاويل عندما كان يعود كل أسبوع أنه هو نفسه قد يزحف إليه الخطر، فالرجل ذو العضلات المفتولة المخمور

(١) قيس بن الملوح

Telegram: electronic_library

بصورة دائمة غدا مثل مجنون لدغه عقرب. وفي ظل مخفر سلبي، رأى والدي أن لا شيء سوف يحل الموضوع سوى الصبر.

ولكن فجأةً اتصلَتْ والدتي وأخبرته أن العائلة قد ارتحلت، فطار فرحاً، وأخذني إلى مطعم يدعى «كباب هوود»، وطلب ما يكفي خمسة، وأخذ يلتهم الطعام بحيوية، ووجهه يتقد بصفاء، لدرجة أنه لم يلمح أن طبقي لم ينقص، وعينيَّ حائرتان، ووجهي مكروب يلوحه أتون منتصف أب... ارتحلت!!... إلى أين إذن...؟ يا إلهي... كم من الأيام قد مر يا روزالين... على ذلك اليوم البعيد الذي اهديتني فيه الياسمين، وأيقظتِ قلبي على الحب نصف سنة... أم ومضة برق...؟ هل تُرى تحول حبكِ إلى رماد...؟

كان صوت مطرب بدوي يتعتع عالياً من جهاز التسجيل. ومروحة السقف تدفق هواءً أشبه بهواء السيشوار، وكان دخان الشواء الذي يزيد من شهية والدي يزيد الدوار في رأسي، فألقيتُ جبهتي على طرف الطاولة... عندها فقط انتبه أبي، وأخذ ممازحاً يفتح لي فمي بيديه الاثنتين، ثم دلق كأس اللبن فيه، وأمسك يدي ووضعها فوق الكباب، ولكن كفي ظلت مقبوضةً، فاخذ ضاحكاً يفتحها بأصابعه العشرة، حتى إذا تمكن من ذلك، امتقع وجهه فجأةً:

ـ من أين لك هذا الزر.

وأخذ يدور حولي وينظر إلى ملابسي.

ـ من أين انتزعت هذا الزر؟

ولم أحر جواباً، وعاد رأسي يترنح، فصاح بالنادل:

ـ أبدل هذا الشريط وضع لفيروز بدلاً منه.

Telegram: electronic_library

وفجأةً أخذ صوتها يتدفق:

لـوفـيـنـا نـعـشـق ونطير مـع هـالـورق الـطـايـر
تـانـكـبـر بـعـد بـكـيـر شـو صـايـر شـو صـايـر

عندها فقط أخذَتْ ملامحي تسترخي، وتعابيري تتغير، وتنهدت كمن خرج من قبر للفراعنة، وأقدمت على الطعام ببطء، ثم أخذتُ أسرع.

ـ كل... كل... الكباب كثير الدهن لذيذ... ولا يسبب سوى الموت.

قال أبي مقهقهاً وهو يلتهم السلطة بعافية لم أره عليها في يوم من الأيام، لقد انزاحت الغيوم فجأةً وانطلقت أساريره... وأكملَتْ فيروز:

أيـدومُ الـحـب تسألني حـلـوةٌ جُـنَـتْ بها السبلُ
أيـظـلُ الـروضُ مبتسماً ويـطـولُ الـبـوح والخجلُ

وتجرأَت وسأَلت:

ـ أيدوم الحب عند الفتيات يا أبي؟

وسمع أبي السؤال جيداً وفكر بما فيه الكفاية وهو يشرب اللبن، ولكنه جعل وكأنه لم يسمع ولم يرَ ولم يفكر، بل زاد في سرعة إقباله على الشواء والخبز والملح والعرقَ ليوهمني بأنه ليس معي، كان دائماً يتحاشى الموضوع لأنه لم يرد أبداً أن يزيد هوسي اللامجدي ولكن هذه المرة أَلححت أن يكون لي أباً قبل الوداع لمرة واحدة في أهم ما يشغل بالي:

ـ أيدوم الحب عند البنات يا أبي؟

فقال وهو يمضغ وعيناه في الطبق:

Telegram: electronic_library

ـ نحن في الصحراء... وليس في أوروبا.

وتركني في الحافلة... وعدت وحيداً كما أتيت... رأسي مسندٌ على الزجاج... حتى لاح البحر من بعيد.

Telegram: electronic_library

- ٦ -

«وحتى من غيمةٍ يُخشى هزيم رعدها، تنضج المحاصيل عندما ينهمر منها المطر».

تذكرت هذا القول لأحد تلامذة بوذا لأن روزالين كانت صبية ليس لها قرين، صبية تُدعى الحب، دمعة من إله، إن والدها الهادر كأمواج إعصار، المضطرب كمحيط من الظلمات، قد أنجب صبية يسكرها قطف الورود، مدمنة على الهيام بالمدى والأشجار والغسق، فمنذ الأسبوع الأول لوصولها إلى تلك القرية الجبلية النائمة في أحضان وادٍ من الضباب والبحيرات والجروف، لاذت بالكتب والقصائد والألحان، بينما غرق هو في القمار.

لقد استيقظَتْ سيدة الهيام تلك لتجد نفسها في منفى، من ذلك الوادي الملقى تحت الغيوم، ولم يمض أسبوع حتى أخذت تحس أنها إن لم ترني ستلقي بنفسها من أعلى صخرة في الجبل، وأسمتها صخرة الحب، كانت تجلس هناك فقط لتتذكرني، متأملة البساتين والروابي بمقلة دامعة، لقد كتبت لي رسالة من حبر ودموع، ضمَّتْ كل ما انطوى عليه قلبها من غزل وعذاب، ووضعتها في بريد القرية إلى صديقة لها في المدينة البحرية، أشارت لها فيها إلى عنواني وأوصافي، ولكن البريد أعاد الرسالة بعد أن ذكرت لها بها صديقتها مع كثير من الأسف إن جيراننا أخبروها أن حبيبها والعائلة كلها قد اختفوا.

Telegram: electronic_library

ومنذ ذلك اليوم غدت تشعر بعمق في تلك الوهدة من الصخور والرياح والظلال أنها وحيدة في هذا العالم، فلا فلاحات القرية يجلبن لها العزاء، ولا ثرثرة الزوجات غذاءٌ مفيدٌ لمثل تلافيف دماغها، ولا المنزل يجلب لها سوى مزيد من الكرب، يتراءى إليها أنه لا يوجد في هذا العالم سوى هي وصخرة الحب والزمن.

فأخذَتْ تصادق الكتاب في دروب الزهور والشمس وأشجار التين، وعندما تعود إلى البيت تنكفئ الى كمانها وأسطواناتها، ولكن كل ذلك لم يكن يجدي، ثمة هوىً يغازل مخيلتها، حنين يتسرب من صدرها إلى ضلوعها، وفراق يعض على قلبها.

بيتي أنـا بيتـك
ومـا إلي حـدا
من كتر ما نديتك
وسـع المـدى

كانت شفتاها دائماً ترددان هذه الأغنية، وهي ترنو من النافذة إلى البحيرات البعيدة. كان والدها لا يلقي عليها تحية صباح أو مساء، مجنباً إياها كعادته مزاجه السيء وخيره وشره، وكانت والدتها منهمكة من الفجر إلى الليل، أمَّا هي فلا تخدرها الأغاني ولا الكتب، ولا الهروب من المنزل إلى صخرة الحب والموت، كانت ميالة بشكل ما إلى أن تموت حباً، أن تمزِّق معصمها هياماً، أن تُلقي بنفسها إلى هاوية مرعبة غراماً وحنيناً.

ولكن فجأةً وجدت ضالتها بأولئك السياح الذين حملهم الصيف من المدن، فأخذت تحتك بفتيات العاصمة الخفيفات كالفراشات، وترنو بذعر إلى أولئك الفتية الجريئين الذين يفكرون بسرعة في

Telegram: electronic_library

الجنس، فحبسَتْ دموعها وقررت ألا تدع الأفكار العنيفة في يوم من الأيام تُسرع إلى قلبها، ولكن سكان المدن لم يكن يطول بهم المقام، يتبدلون بسرعة، فلا يكاد القلب يهنأ حتى يبدأ الوداع، كانوا يلوحون لها بأيديهم مبتسمين متعجبين كيف تذرف الدموع فتخطف قلوبهم.

ورغم أن شهر آب حمل معه معظم المصطافين إلا أنها عادت لتوحدها... وذات يوم، على صخرة الحب والموت تلك، وجدت نفسها تخطف القلم فجأةً وتكتب مندهشة قصيدة لأول مرة في حياتها، ثم وجدت نفسها تطير بجرح ينزف أكثر، كانت ترغب بكل أعماقها أن أقرأها أنا.

كان آخر أمل لها، كانت آخر تمنيات قلبها، أن أكون وأهلي في رحلة، ثم أعود في أيلول عند افتتاح المدارس، وقد تحقق هذا الحلم.

فذات صباح، قُرع باب شقتنا، وعندما هرعت إليه، رأيت فتاة بملابس مدرسية وقد فوجئَتْ بأن الباب قد فُتح، وتأملتني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم تفرست بوجهي من جديد، ولم تلق أي تحية، بل قالت:

ـ أين الزر؟

وصعقني ذلك صعقاً، حتى أن شفتي بالكاد دمدمتا... فقاطعتني:

ـ أرني الزر أُعْطِكَ رسالة.

فرددت بدهشة:

ـ من روزالين؟!

ـ لقد نطقت كلمة السر... ها هي الورقة.

وتبخَرتْ كشبح أتى من حلم.

Telegram: electronic_library

أما أنا فقد ظللت ثلاثة أيام أذوب في كلمات روزالين، وأغرق في حبرها ودموعها، يقول بودلير إنَّ السوقة يعشقون أمَّا الشعراء فيعبدون، لقد تبدى لي أنَّ حبيبتي تعبد ولا تعشق، ولهيب سطورها الذي استمر ثلاثة أيام يلفُّ وجهي بغموض أَسَرَّ لي أنَّ معبد الحب الذي تدعوني إليه طافح برائحة البخور، وصخرة الحب التي موعدنا قربها عصر يوم الجمعة خلاصنا الأخير.

صدمة من نور، كانت تلك المعجزة نهاية ذلك الصيف البخيل، جعلت مع نسائم الخريف الباردة وجودي كلَّه أقوى، فرحت مساء الخميس أغني بصوت آسر وأنا أحاول الدوران على رجل واحدة فارداً ذراعي:

طريق النحل الطايـر
صوب الضو المكسور
بيصير يرسم دوايـر
ويكتب ع الهوا سطور

ولكن أختي أسرَّتْ لأمي بأنني أتجه إلى الجنون... فأجابتها بألا تسألني شيئاً، فهي لا ترغب بأن تجدد للطرب القديم آلاته، وقد كانت تظن أن كل شيء قد مضى وانقضى، وأن فرحي المفاجئ بعد ثلاثة أيام من الصمت المطبق ليس سوى بسبب رحلة يوم الجمعة المدرسية، كما جعلتها تتوهم حتى لا تفتقدني سحابة النهار.

إن ما تكتمه أمي يكبته أبي ويتحفظ عليه المجتمع، إن أي حديث عن أي شكل من أشكال الحب يتعارض مع الاحتشام العام، وكأنما ثمة اتفاق غير معلن على عدم ذكر هذه القضية في الأسرة أو المدرسة أو المجتمع الذي لم يمنع الشاب من فعل أي شيء بل طلب منه فقط سترَ ما يفعل، في الوقت الذي طلب من الفتيات ليس

Telegram: electronic_library

ان يكن بريئات وشريفات فقط بل بلهاوات أيضاً، ينقدنَ لأزواجهن مسلوبات الإرادة. كنت أشعر منذ تلك السنين كيف يبدي المجتمع نفاقاً مدهشاً، إن ذلك الجو الخانق قد رانَ علينا كالكابوس، فمن منا لم يلتق أستاذه في شارع خلفي ضعيف الإنارة، او سمع الأسرة تتحدث عن زلات هذا وذاك من الذين يتظاهرون أمامنا بالتدين والترفع، وفي الوقت الذي أرغمت فيه الرقابة الأدب الجاد على عدم التطرق إلى الموضوع، كانت أفلام الفيديو الإباحية تباع بالملايين من تحت الطاولة. وها هي أمي لا تريد أن تجدد للطرب القديم آلاته، حتى تستطيع أن تضع رأسها على الوسادة وتنام مطمئنة من أننا لا نملك غرائز لا أنا ولا أختي ولا حبيبتي.

أما أنا فهل داعب النعاس جفوني؟ إن تلك المعجزة كانت أشبه بضياء هائل لفح سريري، ان حدقتي ظلتا مفتوحتين كأنهما لم تعرفا النوم من قبل «عندما تنام كل العيون تبقى عيون الحب وحدها ساهرة[1]»، آه... غداً يأتي والدي وفي ظنه أن يحدثني عن شاعر هوود... «تداويتُ من ليلى بليلى على الهوى»... كيف أتداوى منكِ بكِ يا روزالين...هل تُرى أهدابك مغمضة؟...

ورحت أُعيد بخفوت وأرق لذيذ ساحر يسبح في عتمة الغرفة فوق السرير:

طريق النحل الطايـر
فوق الضو المكسور
بيصير يرسم دوايـر
ويكتب ع الهوا سطور

(١) مَثَلْ

Telegram: electronic_library

ولفحَتْ النجوم النافذة، وقبَّلَتْ ريح الخريف وجهي، آه... لِمَ يبدو الليل مسحوراً مرخياً كسيمفونية من الخدر... كم يفقد الكون رونقه بدون الحب...؟ ومع ذلك قد يمر من جانبنا ولا نراه... وهمست نسمات الفجر في أذني أسرار الندى... فانسابت نظراتي من النافذة، وقد حجبَتْ الزرازير زرقة الفجر، تناثرت بين أغصان شجر الليمون، وصدحت الحديقة... كما شجرة الآس عزيزة على فينوس هكذا أنتِ بالنسبة إلي يا سنديانتي، رددتُ والعتمة تتلاشى شيئاً فشيئا: تحرسكِ أشجار الحديقة الصامتة في النهار، ويرقبكِ زحل وعطارد في الليل، مشاعل الزمان الأبدية.

وفي اليوم التالي أوصلتني الحافلة إلى قرية في أعلى الجبل تدعى «مرمريتا» حيث قال السائق: عليكَ أن تنحدر قليلاً غرباً فتجد «عين الراهب». وكان لا يزال لدي فعلاً نصف ساعة على الموعد المحدد. ومع ذلك فكرت: إن تأخرتُ فقد تكون تتجول في أروقة القرية، ولا بد أن أعثر عليها في إحدى الأزقة...

ولكن ما إن ترجلتُ من الحافلة حتى انداحت أمامي طبيعة مذهلة حائرة تحت صفاء السماء، وكان الغسق يتهيأ ليغطس وراء الروابي، ولم يكن في القرية سوى الريح والأبواب الساكنة المغلقة، وقد تبدى إلي ضحكات فلاحات وغسيل منشور على حبل، قرب منزل بجوار حقل، وعندما وصلتُ إلى المقبرة بدأ المشهد يغدو ساحراً، فإلى اليسار بحيرة بعيدة غارقة في محيط من الخضرة والشجر، تحاذي التلال التي يتوارى بينها الغسق، وإن نظرتَ إلى اليمين، فإن الغبطة التي تنتابك تحت الغروب الحاني فمن قرميد تلك البيوت التي تتسلق المرتفعات الخضراء، فإذا تعلق بصرك بالأفق رأيتَ شحوب

Telegram: electronic_library

البحر من بعيد... بعيد جداً... وفي نهاية المنحدر، وإن تحول كل شيء في نفسك إلى حلم، خلتها سائرة إلى الأبدية، لا يوقظها إلا دقات جرس الكنيسة منسلاً من ضباب الوادي.

وتبدت بحيرتان وراء الرياح، وتمايلت الأغصان، وسقطت زهور الياسمين عند حذائي، كأنما يقلن... هيا خذنا... اجمعنا... فصنعتُ خاتماً وأنا أنحدر وأغني:

لـكَ هـذي الـريـحُ عـودُ والـغـمـامـات ُوتـرْ
لا تـبـددك الـجـرودُ ويُـجـمـعْـكَ الـقـمـر

وفجأةً لاحت من بعيد، تجلس على صخرة ويجلس قربها النسيان، معلقة بين الغيم والوادي كقطرة مطر، وأخذت أتساءل وأنا أرتعش، تُرى بماذا تفكر الآن... بم تحلم هذه الصبية الناعمة وسط المدى والرياح... هل تعتقد أنني لن آتي؟... ولكن ما إن انحدرتُ أكثر... حتى لم أعد أحتمل... فبدأت أطير طيراناً... وتناهى إليها دحرجة الحصى وحدسَتْ أنها خطاي، ولكنها ظلَتْ مطرقة مصغيةً إلى أحاديث الريح، لا يحرك سوى النسيم خصلات شعرها، وعندما غدوت قربها وراحت عيناي تتنزهان على شعرها، وقفَتْ دون أن ترنو إلى وجهي، يلازم عينيها وميض دافئ عميق، وهي تعلم أن نظراتي تغسلها من رأسها إلى أسفل قدميها.

ولم نقل شيئاً، أخذ ينظر أحدنا إلى الآخر، ويتكلم دون أن يتكلم، كانت عروقنا تبترد، متفاهمين متفقين في الجوهر، لقد شرح كل منا للآخر طويلاً طويلاً دون أن ينبس ببنت شفة، كنا ندرك في أعماقنا أن الكلمات ليست سوى غيمات أقل من هيامنا، وأن سماءنا الصافية وراءهم واحدة.

Telegram: electronic_library

ووضعتُ يدي على كتفيها وسرنا، وخلنا أقدامنا تخطو نحو الأبدية، الصمت إكليل على رأسينا، ولو أن أحدهم دهمنا وسألنا من أنتما وأين أنتما لأجبنا نحن في قلب الله.

وعندما حاولْتُ الكلام انحبس صوتي، وسرى لهب تحت جلدي، أخذتني رجفة في كل أعضائي، وصرت أكثر شحوباً من ميت، فشدتني من كفي وتابعنا المسير وحولنا ترف الملائكة وينام الزمان.

أخذنا نسير ونسير... كفي في كفها... يلفنا المدى من كل الجهات ويرسل آخر ضياء النهار على وجهينا، الريح تداعب جبهتين ليستا من هذه الأرض، وتطير خصلات شعرنا، فلا ينظر أحدنا إلى الآخر عندما نبتسم لقد كنا ندرك ذلك من كفينا، كانت أسراب الطيور ترجع إلى أشجارها، ورفوف النحل تعود من دروب الورود، أما نحن فقد كان يخامرنا أننا وصلنا إلى حواف الأرض وخطونا خارجها فابتلعنا الغسق وتلاشى.

كنا نؤمن أن ثمة من يصغي إلى صمتنا، وكلنا ثقة. ان الملائكة ترمقنا، وأننا حبيبان منذ دهور والآن نحن بين يدي الله نبوح بالحقيقة. هكذا ضمنا وادي الحنين صامتين، كنا نملك نفس الأفراح ونفس الجراح ونفس الحب، منذورين لزمن أكثر هناءً، يهمس في أذنينا أسرار عهدٍ آتٍ مترع بالمحبة.

وفجأةً همَّتْ بالرحيل، وهذا ما جعلني أتمنى الموت، فبكت، وقالت هذا الفراق لا بد من تحمله يا حبيبي، وإني لأذهب مرغمة، فقلت اذهبي، ولكن تذكري أنني ألبست إصبعك خاتماً من ياسمين، وزينتُ شعرك بزهرة جورية، فقالت: من بين كل البشر من تظن ذلك الذي سأتذكره أكثر منك.

Telegram: electronic_library

ومن رجفة كفها وهي تغادر يدي، أدركْتُ أنها تمنت أن تموت في سكينة قربي، وأن يُرخي الدهر عليها سدوله، كان خدر اللقاء قد أوهن قلبينا، وعندما افترقنا كان خيالها لا يزال جارياً في خيالي وتورد خديها في دمي...

كل مين طُوي جناحو وراح بها المدى
ولدين وضاعـوا عَ جسـر الصـدى

أخذتُ أردد وأنا ألتفت إليها تتوارى عن ناظري... وغابت الشمس، وتشتَتَتْ الظلال، وملأَتْ الأطياف الوادي، وبقي القمر وحيداً إلى يساري. وتساقط رذاذ خافت فوق المقبرة، واغرورقَتْ أوراق الشجر، وابتلت الصلبان، وتبدت القبور تندى...

Telegram: electronic_library

الفصل الثاني

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

- ١ -

يا زمناً يجري لا يتريث ولا يرحم، ليتك توقفت دهوراً في زمان الحب ذاك، إن كل غابة عبرنا بها أصبحت مقدسة، كل شجرة جلسنا في ظلالها غدت إلهية، كل طريق خطا عليه حذاءانا صار نورانياً...

وهكذا بعد خمس وثلاثين عاماً أُدرك أعمق وأعمق عدالة المقولة: الحب لا يموت الناس فقط يموتون. إن من حلكة تلك السنين يشع في نفسي فقط غرام روزالين، كزمردة في إذن زنجية، إن كل رسائلنا التي سُرقت أصبحت قصصاً أزلية في الأفواه، كل الخدود التي توردت وهي ترنو إلى لفتاتنا، كل القصائد التي كُتبت، كل الأغاني، كل الطيور التي زقزقت، كل الدموع، كل الثواني التي قضيناها على تلال المحبة تحت الشمس وتحت الغيم، كل المطر الذي تساقط علينا، كل الثلوج، أصبحت مقدسة وتحوي الخلود...

لم يبق منك شيءٌ يا حلماً ملأ الدنيا. لقد كبر حبنا حتى أصبح سفراً، لقد ارتحلت بعدها ثلث قرن، طفت فيه أوروبا من أقصاها إلى أقصاها... وإنني إن عدت الآن مهووساً بالملجأ الوحيد الذي عرفتُ فيه الحب في حياتي، إن انطلقت إلى وطني جذلاً مبتهجاً كطفل، لم يكن السر في ذلك سوى روزالين. كنت على موعد مع الذكريات، كنت على موعد مع كل حنين الماضي، تركتُ المدن

Telegram: electronic_library

المشغولة بالنقود، وهرولت إلى السراب القديم، حيث كان القلب مفتوناً والنفس مشغوفة بالسحر الذي تشعه مراهقتي على زماني.

ومنذ غادرتُ المطار الغارق في المطر، ووضعتُ حقيبة الغربة تحت غيوم الوطن، حتى تساءلت: تُرى هل يعود الماضي وتعبر روزالين على الأرصفة المبتلة فتغمر قلبي بالحنين؟ ونظرت إلى الرذاذ الهاطل على الشارع المغرق، وأوحى لي شحوب السماء ورطوبة الريح بسلام داخلي قديم... أحسستُ أنني مسكونٌ بها... شعرت أن روزالين هي موطني... أحسستُ أنها كالهواء المحيط بي، وما إن فتحت دفاتر الليل وبدأت أطارد الذكريات حتى اكتشفت أنها هي التي تطاردني... وأن حبها كذئب مسعور ينقض علي يريد أن يفترسني... وأنني ما جئت إلا ليبتلع آخر ضلوعي... ذاك الذي أقمت له هيكلاً في أعمق أعماق قلبي.

وفي اليوم التالي، وجدت قدمي تقودني إلى مدرسة الحب... كما المطر على صحراء هكذا كانت مدرستها على قلبي... هنا كان عالمها يبتدئ... هنا كان عالمها ينتهي... هنا خفق قلبي لأول مرة فألقيت عليها نظرة لا عهد للناس بها. وقبلها كنت أبحث عن الحب مثل ناسك لا يعرف من أين سيظهر له الله. كان الحب لا يزال فحماً ينتظر في باطن الأرض[1]. أو كما يقول عاصي الرحباني كان انتظار الحب نافذة على الحب، ثم غدت التفاتة صبية عذراء فرحة لا توصف للقلب، حيث أصبحتُ لا أخطو وراء عتبة المنزل أبداً إلا لأحب أحداً.

(١) بابلو نيرودا.

Telegram: electronic_library

لا أرغب في القول أننا أحببنا بعضنا بكل ما أوتينا من قوة، بل كان حبنا مثل النهر الجاري يتدفق حنيناً، ويشيع سحراً على كل من يلمحه. وكما يعكس النهر ألوان السماء، كان حبنا حيرةً لمجتمع متخلف: موحياً بالموت تارةً وبالفرح طوراً وبالغرابة تارةً أخرى. فحين أجرؤ إلى النظر ورائي، إلى القرن الماضي، إلى الخمسة والثلاثين عاماً التي انصرمت، وعيناي يوشحهما دمع حار على زمن مضى وانقضى، أجد نفسي تهرع بسرعة إلى عالمي الداخلي، وتُخرج يداي رغماً عني أضابير الماضي، وتمسك أصابعي بقلم الذكريات بحتمية لا يدونها إلا أصدق أنواع الحبر، فإن أدمَتْ ريشته ومزقَت من يتربصون بمعابد الحب لتحطيمها، وإطفاء كلمة المحبة، بدوافع غير واعية أو فطرية، أو أتوماتيكية، أو مدركة بوعي ضحل سلفي كهفي من غابر الأزمان، مستخدمين شتى الوسائل لتغييب تلك الكلمة من العصور، فلن ينتابني سوى سعادة الحكيم الذي استأصل مبضعه الورم الرهيب.

Telegram: electronic_library

- ٢ -

لقد التقينا في عمق ذواتنا في تلك القرية المنسية، شاحبَين، صامتَين، أشبه بجزيرتين منفصلتين تغسل مياه الحب الواحدة شاطئيهما. كانت الدنيا تصلي لنا، والوادي والجبل والغيمات يباركننا.

وما إن دنت روزالين من ساحة القرية حتى شُدِهتْ صديقاتها لسحنتها وهن ينظرن إليها قادمة تحت أشجار التين:

ـ من هذه؟...

ـ روزالين...

ـ لِمَ تبدو على هذا النحو!؟

ـ إنها تدنو ونصف وجهها تلفه ظلمة الموت!.

ـ بل ضياء الحب!.

ـ انتظرن حتى تنقشع ظلال أوراق التين عن وجهها.

ـ لقد أتعبها الحب وحوَّل بهجتها إلى شحوب.

ـ بل نبتت لها أجنحة.

ـ ها هي.

ـ ما بكِ؟...

ـ كأنه هوىً يا صديقاتي... كأنه هوىً!

Telegram: electronic_library

ـ كأنها تضع عطراً!

ـ وهذه الرائحة... أهي عطر الحب؟

ـ وربما عطر الموت!

ـ ما بها روزالين اليوم!؟

ـ إنني إذ أذهب إلى الحب أشعر بصورة غريبة أنني أتواطأ مع الموت!

ـ إن هذيان الاكتئاب ينتابها فجأةً كما الضحك!

ـ هيا إلى المخبز... نشرب الشاي ونأكل شطائر الزعتر.

وهي تمضغ:

ـ لقد رأيت فتىً غريباً عن القرية يترجل من حافلة المساء، أهو ذا؟

فأجابت روزالين دامعة:

ـ أجل.

ـ اللعنة... من لها أن تمر به دون أن تقع في الحب!

ـ لِمَ؟!

ـ لقد كان يضطرم وهو بنفس الوقت هادئ.

ـ كيف؟.

ـ لقد كان دم المحبة يغلي في وجنتيه ومع ذلك يسير وكأنه نائم.

ـ لقد شوقتني... ثم ماذا؟

ـ كأنكِ لم تكوني معه!

وفي تلك الأثناء عبر الفتى الغريب ابن عمها أمام كراسي الفرن، ألقى على روزالين نظرة أسيانة وظل سائراً... وفجأةً... ما إن انقضى أسبوعان وكنت أسير وحيداً تحت نجوم الشاطئ،

Telegram: electronic_library

وكان هوى روزالين قد ملأ فؤادَي أبي وأمي حبوراً وهما يرنوان إلى حالي في أعلى طابق للوجد، وكان البحر يفيض فرحاً على قلبي، والرياح المالحة تهب على وحدتي... فجأةً... دهمني ذلك الفتى الغريب وقال:

ـ استحلفك بحب روزالين الطاهر، بصفاء تلك النجوم الساهرة، بعمق ذلك الليل الغامض، أن تترك حبها لي، فقد نشأنا على الهوى منذ الصغر، وأنت تهزها بنظراتك هزاً وتُثير غيرتي، إن تلك الروح التي تهواها هي حبيبتي منذ الأزل.

لم يبق خلية واحدة في بدني لم ترتعد، حتى قبل أن يصعقها مرمى كلماته الأخيرة... وحاولت تلاوة صلاة برعب... ثم انسحبت بوجه صامت مبتعداً عن الضفة، ولكن فجأةً انفطر قلبي من جديد، فعدت إليه وقلت بحزن:

ـ ما اسمك؟

ـ عماد.

ـ ازرع الغيرة بسمة... ونسياناً يا عماد.

لم نكن حينها نفقه أن الفتاة هي التي تختار وعلى الآخر التراجع بأخلاق رياضية، ليفتش عن حب جديد وفرح جديد. كلا... كان السائد أن يشد أحدهما شعر الآخر حتى يخرج بين يديه من الغيظ والغيرة... لم يكن أبداً أحد من العمق بحيث يفقه القول المأثور: «قرع الفراق بابي، وحين فتحت له، أعطاني وردة الحب الآتي[1]».

(١) غادة السمان.

Telegram: electronic_library

وأخرج الفتى مدية صغيرة:

ـ سأشوه وجهك حتى لا تعود تعرفك.

والتمع في عينيه بريق أشبه بجنون العظمة ممزقاً قناع الوداعة.

فابتعدت هارباً:

ـ لن يحبك سوى الشيطان.

فتبعني وقد شعر بقوة أنه جُرح في إرادته المتشددة وهو يصرخ حتى أحسست برعب أن عروقه تتشقق وتنفجر.

ووجدَتني أمي خائر القوى وجبهتي على ركبتي... لقد كان ما بي أثقل من أن يتبدد فجأةً فأستطيع أن أنطق، فأقفلت الباب على نفسي وتناولت ورقة ودونت رسالة مفعمة بالغيرة.

ورغم أنني وحتى كتابة تلك الرسالة لم أكن أعلم سر الحب الذي يُخامر عقل الصبية، إلا أنه بالنسبة لي كان حباً إلهياً يطير بسروري إلى نهاية النهايات، إلى حيث الآلهة تسكن، مشوباً بخوف ومتدفقاً بفرح غامر بالحياة يجعلني لا أدرك من أنا! ومما أنا خائف... كان يراودني فقط أن القدر يتربص بنا بأمكر الوسائل، أفظعها أن ينفخ على حبنا فيخبو.

وبقيت طيلة الليلة ساهراً أخط الرسالة، وكانت والدتي ترنو من ثقب الباب مستغربة ولعي بالعزلة وتنهدي الدائم، وفي منتصف الليل طرقَتْ الباب فقلت لها أن تدعني وشأني، ولكنها بدلاً من ذلك، اتصلت بوالدي في تدمرين وأيقظتْهُ:

ـ ماذا ترين من ثقب الباب؟!

Telegram: electronic_library

ـ عيناه ساهمتان تنظران إلى عالم آخر.

ـ حسناً الصباح رباح.

وعندما صعد الصباح فوجئتُ بالشمس على شفتي، وكان عارض النافذة قد أزاح محرقها عن عينيّ، فشعرت بها قبلة دافئة طويلة لا تنتهي... وفجأةً... قُرع باب المنزل مبكراً جداً قبل جرس المدرسة، وكانت والدتي لا تزال نائمة، وما إن فتحت حتى فوجئت برسولة المحبة على بابي، وأودعتني رسالة، مبددة كل ضبابي، مطيلة التحديق إلى وجهي، كأنما لتعود إلى روزالين وتنبئها بما قرأَتْ... ولم تقرأ سوى اضطرابي... ولكن خيل إلي أن وجهها يقول: ابق هادئاً... فالملاك هي حبيبتك، فأبيت أن أعطيها رسالة الغيرة، وودعتها وهرعتُ مسرعاً إلى الغرفة، وأقفلت الباب... وصافحت عيناي خط روزالين من جديد:

إلى من زرع الحلم أمام نافذتي

لم أصدق أنني رأيتك ثانيةً... وجعل قلبي يرقص، وازدحمت الكلمات على شفتي فلم أقل شيئاً. والآن ومن جديد يسبقني إفراطي وقد قررت أن أطلق العنان لمشاعري في الكتابة إليك، ولكن يدي تهبط محطمة... وأتنهد عاجزة... إنني أحبك أكثر مما تسعف اللغة به. يقولون لي أكتبي بلغة الحب، ولكنني لا أجد ما أعبر به كما أنت مرسومٌ في أعماقي... ها أنا أرتب وأشكل وأقلب الكلمات بألف طريقة، ولكن لا أعرف كيف أقول لك «أحبك». عند الفجر أستيقظ، وأرنو بمرح إلى أسراب الطيور تهرب... كم أرغب أن أطير إلى حيث قلبي يرغب... لقد سرقتَ لي عمراً جديداً... وعهداً جديداً... فلم أعد مخلوقاً ليس ما يبرر وجوده، بل صار ينتابني الحبور من

Telegram: electronic_library

رؤية المطر، وأغتبط من دفء الشمس، صرت أكتب الشعر وألتهم الكتب... أصبحت أحس أن لوجودي معنىً... إن حبك يفرحني لحد أظن معه أن لدي جناحين وأن الطيران ليس غريباً عني... أو أفتح النافذة وأقنع نفسي أنك لا بد ستمر رغم أنني أعلم أنك في المدينة، فأنظر إلى الطريق والمطر والأرصفة المبللة فرحة كأنما طيفك يكتنف المكان. وأهرع إلى الخارج أسير وأسير ولا أعلم إلى أين، إنني أفكر بك كمتشردة... أستحلفك بحبي لك أن تأتي وتلعب معي في الوادي، ولن أكون حزينةً كالمرة الماضية، سآمر السحب أن ترحل عن جبالي... وسأصلي للزهور أن تتفتح في دربك، سأقطف لك ما تبقى من تين عن الشجرات المنسية في أعمق أعماق بساتين الخريف، وسأجمع لك جوقة من العصافير تصدح طيلة الطريق... تعال فكل يوم خميس يغادر أبي وأمي إلى المدينة للتسوق، وأبقى وحيدة في المنزل سحابة النهار، المنزل الذي بجوار المخبز والمطل على الوادي والمدى مباشرة... لقد استيقظتُ منذ خمسة أيام لأجد زهرة حمراء ورسالة على سريري، فنهضت مستغربة وأقنعتُ نفسي بأنك لا بد من ألقاها من النافذة، وفضضت الورقة ويديَ ترتعدان، وقرأت: «لقد مررتِ كحلم في حياتي... يا حبيبة لا تُنسى... ثم حطمتِ لي قلبي»، فألقيت نظرة من النافذة فلم أرَ سوى الروابي الصامتة ترتاح عليها الشمس، وخيل لي أنني شممت رائحتك، وقلت لا بد أنك مختبئ في الدغل المجاور، فاندفعت إلى هناك وأخذت أتتبع العبير بين الشجر، حتى تهت ولم أعد أدري إن كانت زهور الحقل هي التي تفوح أم عطرك الآسر... وأخيراً ويا لحماقتي التي تجعل عاطفتي تسبق فطنتي تذكرت أن هذا إن هو إلا خط ابن عمي عماد، فقصدت بيت عمي غاضبة وأوضحت له أن ما بيننا لم

Telegram: electronic_library

يكن سوى صداقة الطفولة وأننا لم نكن نفقه كنه الحب، ومع ذلك ظلّتْ عيناه تتقدان بشكل يبعث الذعر.

أيها الفتى الذي قبلك ما كانت قوافي حبي أو بوح شعري، أنت من أدخلتني إلى مملكة الحب، عندما كلمتني أول مرة، وكنت رقيقاً وحسن اللباس، ومن يومها وأنا أشعر أنني محبوبة وخفيفة وكأن ثمة إلهاً داخلي يرقص، أو أنني في قلب الإله، أو كأن بحراً في داخلي يموج، أو أنني في قلب البحر، غدوت مختلفة وكفراشة أرغب أن أطير، أكتب القصيدة تلو القصيدة، وقد اخترت لك هذا المقطع لأنهي هذه الرسالة، منتظرة إياك يوم الخميس، وكل ما أرغبه ألا تغفوا إلا وأنا في قلبك:

كن مطمئنَ القلبِ يا صغيري
فلم يزل حبك ملءَ القلبِ والضميرِ
ولم أزل مفتونةً بحبكَ الكبيرِ

حبيبتك روزالين

«آه... حبيبتي تنام في روح الوادي، وتعانق ذراعيها السماء، تفتش عني بين البساتين... كيف سأشكو لها غيرتي دون أن أكون جاثياً على ركبتي قلبي؟». رددتُ في نفسي... وهرعت إلى المدرسة... وقد مزقت رسالة الغيرة... وفي الطريق فوجئت بأن الخريف قد حلّ فعلاً، وأن الطيور تهاجر، والزرازير قد غطت السماء، مضيتُ تحت اصفرار أوراق الشجر مردداً:

كـن مطمئنَ القلـبِ يا صغيـري
فلم يزل حبك ملءَ القلبِ والضميرِ
ولم أزل مفتونـةً بحبـكَ الكبيـرِ

Telegram: electronic_library

كنت أدرك أن هذه ما هي إلا أبيات نزار الذي طالما ألهم روحها، ولم آخذ عليها ذلك كهفوة، بل بالعكس لقد طرت فرحاً، رافعاً الورقة بين أصابعي في الريح، لأنني كنت موقناً أن هذا ما يريد أن يقوله لي قلبها المفتون بالحياة والهناء والعذاب، أخذتُ أعيدها مجنوناً فرحاً وهي تخفق بيدي كراية، ثم أخذتُ حجراً ونقشت على حائط المدرسة «أحبك يا روزالين... أحبك... شكراً لأنك أتيت إلى حياتي».

وفي الحصص كنت أفكر: «كيف أكون جديراً بالملاك روزالين، كيف إنها بهذه العفوية التي تفيض من القلب إلى القلم فوراً، تعتبرني حبيباً أبدياً قد غير حياتها».

وفي المنزل أظل صامتاً، فإن أمي لم تكن تقابل هذه الترهات إلا بقليل من الجدية، وإن شعرَتْ أن تحولاً مهماً قد طرأ على حياتي، فإن هذا التحول غير مهم رغم أنه مهم. لقد كنت أتحدث مع يمامة بنَتْ عشاً على مدخنة وراء نافذتي، وقد دهمتني أختي، قائلاً لها: «إن كنتِ صديقتي طيري إذن إلى ذلك الوادي وقولي لها ألا تنساني...»... آه... لو أن نافذتي بجوار نافذتها لكنت إذن بحت لها كيف أهواها، كيف أنني أنسى العالم ولا يبقى سوى طيفها، كيف أن قصتنا قد تكون مكتوبة منذ دهور ودهور.

لقد كانت تجتاحني غبطة نورانية ما إن أستلقي على السرير، وكأنها بجانبي، ثم يدخل الرعد والمطر إلى أحلامي فأدمدم: أنتِ ابنة البرق وحفيدة الضباب... لقد لوّنَ طيفها أيامي ذلك الأسبوع ببهجة روحية لن أنساها طيلة حياتي، وتبددت من نفسي كل غيرة... آه... كم نأى ذلك الماضي... أبداً ما شوقني هوىً بهذا العنف...

Telegram: electronic_library

كان علي يوم الخميس الاستيقاظ في الصباح الباكر وأخذ الحقيبة ثم الاتجاه إلى القرية بدلاً من المدرسة، والعودة عند الظهيرة في الوقت المحدد، ولكن والدتي أخذتني وأختي إلى حفلة خطوبة ليلَ الأربعاء مبشرةً إيانا بأننا لن نذهب إلى المدرسة صباح الغد. وكان قلباً مسكوناً بالانتظار لن يطيق مثل ذلك الحفل أو تلك البشارة في تلك الليلة بالذات. ورغم أنه طيلة السهرة قد صدح صوت فيروز: «بهموم الحب، وجاءت معذبتي، وسيد الهوى قمري» إلا أن كل تلك الألحان لم تكن لتأخذني إلا إلى ربة الحب المنسية في ذلك الوادي، إلا إلى ذلك القلب الضائع بين الحقول والسماء، إلا إلى تلك الشفتين المحيرتين المبتسمتين إلى الأبد في وجه القدر. كان خيالها يتبعني من أغنية إلى أغنية، لدرجة أنني لم أنتبه إلى بنات خالتي اللواتي قدمن بفساتين ذوات الحسب والنسب وجلسن إلى طاولتنا، وقد غمرهن اضطراب فاتن، وجرحَتْ إحداهن صمتي:

ـ لماذا لا تبتسم؟

ـ قلبه لا يعرف الحب.

وقالت الثالثة ضاحكة:

ـ أنت كئيب مثل شمبانزي.

وكان كل ذلك ليستحثونني على ملاطفتهن، وانتبهت إلى أختي تقول بلهفة:

ـ أمي أترين تلك الفتاة؟

ـ أين؟

ـ هناك... قرب ردهة الرقص... ألا تلمحينها؟

Telegram: electronic_library

ـ أجل... أجل.

ـ أترين هذا الفتى...؟

ـ أهو ذو الوشاح الأسود؟

ـ أجل.

ـ آه... ما به؟

ـ لقد أعطاها رسالة.

ـ وما في ذلك؟

فأجابت ووجهها يتورد:

ـ لقد تمتم بشيء في أذنها...

ـ وماذا عساه قال؟

فقالت بيأس:

ـ أمي... إنه يحبها!...

ولفت ذلك الحوار انتباهي إلى توق أختي إلى المحبة، ولكن المطلوب العفة والسذاجة والبكارة، وهكذا بقيت أمي صامتة باردة محايدة.

وفي فسحة الرقص كان قد ألقى أحدهم حزاماً حول الخطيبين وربطهما متلاصقين قائلاً:

لا فكاك لكما إلى الأبد من حزام المحبة.

ولكننا نريد أن نرقص.

Telegram: electronic_library

وعلت الضحكات بينما كانت تغني فيروز:

كبرو زهور البساتين
ومتل الكذبي كبرتي
وحليتي بين الحلوين
ولحبيبك صرتي

وفجأة انزاح الرقص البطيء وهدرت موسيقا الجاز، وقلت:

ـ أمي... لنذهب.

ـ لا نستطيع... سنجرح شعورهم.

وقامت ابنة خالتي بجرأة وخطفت يدي، فتبعتها إلى الردهة... ولمحتُ ابتسامة من بعيد على شفتي أمي وهي ترنو إلى إيقاع رقصنا، فتابعْتُ حتى تظل مطبوعة على فمها... وتراءت إلي عينا أختي ترسلان وميضاً شغوفاً بالراقصات البورجوازيات اللواتي يطرن في الهواء دائرات حول أنفسهن، ولكن على الطبقة الوسطى الاحتشام في العلن... وقالت ابنة خالتي وهي تتمايل:

ـ إن جسدك فقط معي.

ـ إن روحي تفارقه عندما أموت فقط.

ـ بل إن لك قلباً لا يخفق.

ـ سأركّب له مضخة.

وأخذَتْ تنظر إلى راقص بجوارنا وكأنما لتثير غيرتي:

ـ بل إن كل ما حولك لا يثير فيك شيء لأنك تفضل أن تنام.

آه... الخوف من أن أنام فعلاً... وأضيع حافلة الصباح... ها هي

Telegram: electronic_library

زرقة الفجر تصبغ زجاج النوافذ... ونحن لا نزال في الأباطيل، كيف يمكن للروح أن تنبعث في هذا المكان حيث ينداح دخان السجائر دوائر دوائر؟

والتهم الجميع الأطباق بنهم ما عدا شخصاً واحداً، وكرع الجميع الشراب ماعدا قلباً واحداً، كان عليه أن يرحل عنهم بأسرع ما يمكن، فأجسادهم لا تزال بحاجة إلى كثير من الطعام، وكثير من الشراب، وكثير من الشراشف، حتى يصل أحد أحفادهم إلى الفرح الأعلى، فينفخ على الماء والتراب والهواء ويحولها إلى لهب.

وتهالك الجميع يلوكون الأحاديث بظفر حول عقاراتهم وسياراتهم ونفوذهم، حتى غدا الأبناء تائهين بين أغاني الحب وسحر العيون وبين الثرثرة المتداولة عن المال. وبينما انحدرتْ النساء إلى التهافت على تعداد أملاك كل من الخطيبين كنتُ أردد مع نفسي: صحيح أن هذا العصر عصر الذهب... إلا أن أية امرأة لن تدعك تمر مرور الكرام عندما تلمح في قلبك الحب الكبير.

وألقيت رأسي على الوسادة متصنعاً النوم، حتى تستيقظ والدتي فلا تجدني... ولم ألحظ سوى أنني مجرد كتلة تغوص في إسفنج الفراش... طهارة الفجرة قد ولت... وبدأ يتسرب الصباح، وعبرت من النافذة ريح متدفقة من البحر، جعلَتْ رئتي ترقصان فرحاً وقلبي يتباطأ، فشعرت بعذوبة الصمت، كانت عضلاتي المجهدة من الرقص تسترخي، وصدري ينبض كأنني على عشب تحت القمر، لقد تسربت رطوبة الصباح إلى جسدي وأسلمتني للخدر، فغفوت وكأنما على سرير من مياه، لقد خانني هواء البحر ومنحني لذة من ينام في خيمة من أوكسجين، فابتلعتني لجة الأحلام ولم أستيقظ حتى الظهيرة.

Telegram: electronic_library

ورغم أن ابتلاع أمواج عاتية كان أسهل علي من انتظار الخميس التالي، نأيت عن المضي بخطة مجنونة نتيجة لليأس... وكانت روزالين تنتظر وقد ارتدت فستاناً بلون النبيذ تكتنفه دوائر بيضاء، ونسقَتْ شعرها بتسريحة مختلفة عن اللقاء الماضي، ودمدمَتْ أمام المرآة: هل أنا طويلة... هل أنا نحيفة...؟ هل شفتاي بلون الخمر...؟ آه... لماذا هذا الميل الأخرق لفمي، هل فعلاً يجعلني ساحرة... هل هو يحبني أم أنا فقط أعبده...؟ إن أبي وأمي لا يجيبان... أجيبي أنت أيتها المرآة!... وقادها اليأس إلى رسولة المحبة التي تتعلم في مدينة حبها الأول، فأكدت أن الرسالة قد وصلت... وحلّتْ الظهيرة ولم يظهر لي أثر، ونظرَتْ إلى الحلوى التي أعدتها وإلى الورود التي قطفتها، ثم جلست إلى النافذة ترنو إلى الطريق وتنتظر: «آه لن يحبك أحد مثلي فلا تهرب من خفقان قلبي... ولا تنسل من دمي... حملتُ حبك في فرحي وفي عذابي... وقد أخلى ما بيني وبين نفسي، فتعرفتُ في وحدتي على الطريق السرية لقلبي».

وفي زاوية من زوايا عقلها، قرع جرس الذكرى: «من أين أتتني عاصفة الحب تلك، وكيف بدأت، لم أنا بالذات؟ آه... على رصيف المدرسة قرب البحر بدأ كل شيء! أتذكرين آنذاك... أتذكرين... عندما كان يرسل النظرات والبروق إلى قلبك؟»... وأخذَتْ تتنهد وتنظر إلى خاتمها ولاحظتْ أن عينيها تذرفان الدمع، فتناولت كمان الحب وأخذت تُغرق الطريق والشجر بشجن يتناثر على الزهور والحقول، ثم عادت تطيل من جديد الوقوف أمام المرآة... وفجأة ارتاعت لفكرة أنني لو أتيت بعد الآن فسأسبب كارثة، لقد أخذت الشمس تذوب فوق صفحة البحيرات البعيدة، ووالداها على وشك أن يقرعا الباب... ولكنني كنت جالساً تحت سنديانة حديقة البناء،

Telegram: electronic_library

أعيد قراءة رسالتها، فلم يبق لي من عزاء سوى أزاهير نثرها. ثم مضيت إلى البحر، وشعرت في مداه العميق بين أحضان الحبيبة السعيدة. ثم اسودت أمواجه ورياحه وظلت عيناي متعلقتان بسفينة راسية بعيدة تضيء بنور غريب مسحور.

كنت أعتقد أنني سأفقد أعصابي خلال ذلك الأسبوع لا محالة، وذكرى عماد ستذرع الجحيم في جمجمتي، ولكن الشعور الذي غمر قلبي بأنني محبوب لوَّن مخيلتي بالأحلام والغرور، فرُحت أنام وأصحو على حبها حتى انقضت الأيام السبعة.

وفي تلك الأثناء كان والدا روزالين في حافلة «عين الراهب» في طريقهما إلى المدينة، وكان عماد يترصد رحلة الخميس تلك... فأوقف السائق عند آخر منعطف للقرية وصعد ملقياً التحية ثم جلس بجانبهما:

ـ لا تزال قصة عودتكم من المدينة سراً من الأسرار!

وتلفتَ الوالد يمنةً ويسرةً ثم أجاب:

ـ حسناً... لا تزال سراً من الأسرار.

ـ وقد يكون وراء ذلك ليس سوى رواية حب غامضة.

فجحظَتْ عينا المقامر، وحدق بزوجته، ثم نظر إليه شزراً مستفهماً، وأدرك عماد أنه أخطأ، وأنه إن أكمل ما جاء يقوله دون دليل فإن عمه سيفتك به في الحافلة لا محالة، فاغتنم بسرعة مفرق إحدى القرى وأوقف الحافلة مغادراً. وعاد الوالد إلى التحديق بزوجته:

ـ هل سمعتِ ما تفوه به؟

ـ المهم أن ابنتنا لا تزال طاهرة.

ـ سأطلق عليه النار إن رأيته مرة أخرى.

Telegram: electronic_library

وصمتت الوالدة... ونظرت إلى الشجر، ولكن كلام ابن أخيه كان قد روعه فأكمل:

ـ تُرى هل يعرف شيئاً...؟ لا بد أنه علم كل شيء.

ـ حسناً القريب ليس مثل الغريب

ـ ولكن ماذا يعني أن يتفوه أمامي بهذا؟

ـ إنس كل ذلك... فلم يعد يهمنا شيء.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لقد قدم ابن أختي من سويسرا، وقد أخبرتني أنه عازم أن يرى روزالين.

ـ ابن أختك!... متى قدم؟... أليس هو في الأربعين؟

ـ ولكن سويسرا في العشرين.

ولأول مرة ترى فمه يفتر عن ابتسامة صافية منذ زمن بعيد... وأوغلت الحافلة باتجاه المدينة... وسطعَ البحر من بعيد.

ـ لقد كاد غرامها يدمرنا وكله بسببكِ!

ـ أنسيت غرام والدكَ؟...

لقد طرق الدرك العثماني الباب على والده فقفز من النافذة إلى الحقل، وسقط مسدسه على التراب، فتبعته فتاة بين المزارع حتى تاهت عنه، فخبأت المسدس وحبها حتى عاد، فأغرم حتى الجنون، لحد أن والدها منعها من مغادرة الحجرة ثلاثة أسابيع لألا يراها، حتى كادت تجن، وكان يُدخل لها الطعام ويُخرج البراز كل يوم حتى

Telegram: electronic_library

علمت القرية كلها... فاستسلم العاشق الولهان وتقدم وتزوجها. وعاشا في نفس المنزل الذي يقطنه الابن والحفيدة الآن.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ إن الوله بالوراثة.

ـ وماذا عن وله والدتك بالرسم.

ـ أفضل من عبادتك للخمر.

ـ بقي قليلاً جداً لكي يطيش صوابي.

وفي اليوم التالي وصل أبي من تدمرين... ولكن إيقاع الحوار كان مختلفاً مع أمي:

ـ لقد اتصلتِ بي ثماني مرات في ستة أيام!

ـ ابنك غريب وغامض ومختلف!

ـ حسناً... أما بعد.

ـ ولقد رأيته في حلم يضع حلقة حمراء في أذنه!

ـ حسناً...

ـ ولم أستطع أن أفسر الحلم سوى بأطواره المتباينة عن الآخرين.

ـ هل هو سعيد...؟

ـ ولكن لوحده وفي عزلته وصمته، وليس بالأشياء أو بالآخرين، أو المال، إنه يعطي كل ما في جيبه لأي عابر سبيل أو متسول أو بائع، أو يبقى في جيبه أسبوعاً لا يعلم ماذا يفعل به!

ـ ألا يحتك أبداً بأحد؟

Telegram: electronic_library

ـ فإن فعل، فإن أي صديق يصافحه يهبه حبه على الفور بفرح، ويبدأ بالحديث موحياً إليه أنهما في الجنة، وقد ينخدع الآخر ويحس بتفاؤل إزاء الوجود.

ـ قلبه متبول[1]... لا غضاضة في ذلك.

ـ وفجأةً يخرج عن صمته وكتبه المدرسية ويمضي إلي ويسألني بلهفة، وكأن خلاصه كله معلق في هذا الأمر: أكان عنترة شخصية تاريخية حقاً: شاعراً وفارساً وعاشقاً؟ أيعقل أن أبو العلاء المعري كان فيلسوف الحضارة العربية بأكملها وشاعرها وهو كفيف البصر؟... هل كتب العرب أرق الأشعار في الصحراء، وهم يمتطون الجمال ويقتاتون التمر واللبن، بلا سيارات ولا مكيفات ولا كهرباء؟... أيعقل أن عمر ابن أبي ربيعة كان يغامر وينتظر النساء الحواج في الطواف ويشبب(٢) بهن؟... وكان يغتبط جداً إن أجبته بنعم، لهذه الحقيقة السامية أو تلك الخصلة وأنها موجودة في الإنسان.

ـ طوبى لتلك الفتاة التي جعلته يشتعل... ترى ماذا كان اسمها؟

ـ روزالين.

ـ وأين هي الآن؟

ـ لا أحد يعلم ولا حتى مختار الحي.

ـ أنا متأكد أنه هو يعلم.

ـ كيف؟

---

(١) أسقمه الهوى.

(٢) يكتب قصيدة غزل.

Telegram: electronic_library

ـ رغم كل ما قلتِه فإنه لا يزال متوازناً، وهذا لا يعني سوى أنه لا يزال يدور في فلكها.

ـ إنها ضرورية لشعلته الداخلية، ولكن يجب ألا يحترق ويتحول إلى رماد.

ـ ألا تلحظي كم حولنا حبه إلى زوجين سعيدين... ؟

ـ إنه يضيء في عتمتنا كجوهرة على خد الليل.

ـ طوبى إذن لتلك الغريبة المجنحة بالغيب والغيم...

Telegram: electronic_library

- ٣ -

باسم الحب... مضيتُ إلى قرية الرياح... أبحث عن منزل الغريبة... عن القلب الضائع في الوادي... عن مراهِقة فاتنة كقصيدة. وما إن هبطت من الحافلة وتأملت الطبيعة الحالمة، حتى خيل إلي وكأن والدي روزالين قد سرقا اسمها من الزهر والبساتين والجبل والطيور...

أوصلني النسيم وسطوع الظهيرة إلى المخبز، تتقدمني العصافير وتلهث ورائي سحب الخريف، في بحر زرقة السماء... آه... ذلك هو المنزل على الأرجح... دمدمت وأنا أدنو، وراحت ذكرى أغنية تنبعث في أعماقي:

هَـذي دارهـا
يا عينُ إن تشردين
يا روحُ إن تهتفين
يا قلبُ إن تسـألُ[1]

عند ذلك... ينبعث من ذلك الصمت لحن سعيد هادئ يلامس قلبي، نداء ظل طيلة حياتي كلها يأسر فؤادي في لحظات الذكرى،

(١) فيروز

Telegram: electronic_library

لقد وَشَتْ النسمات بسيمفونية غريبة، وعندما التفت رأيتها وراء النافذة تعزف وتعزف، وأخذ فؤادي يرق ويرق، ونفسي تطير وتطير، وكأنما كمانها يبوح بنوتات الحب كلها في مقطوعة واحدة، بحيث خيل إلي أن روحها هي التي تتدفق من الأوتار وتسبح فوق الزهور والشجر. وضعتُ حقيبة المدرسة على العشب وجلست تحت النافذة المفتوحة على الوادي، لقد وضعتني السيمفونية تحت تأثير سحر لا فكاك منه، لقد كانت تتعانق تلك النغمات مع فتنة الروابي وتزيد هيامي بسيدة قدري... ووسط ذلك الجو السحري أخذ أدنى اهتزاز للأوتار يلمس أعماقي. وسرعان ما تحول كل شيء إلى حلم: ها أنا في مملكتها... لقد وصلت إذن... وفجأةً تناثر فوقي تويجات من الزهر... فعلمت أنها هي، ولكنني لبثت صامتاً شاخصاً إلى الوادي، فأخذَتْ ترسل لي القبلة تلو القبلة لائمةً التويجات بحال تبعث على الضحك:

ـ هيه... أنتَ... ألست معي...؟

ـ بلى... ولكن في الأبدية...

والتفتُ... والتقَتْ نظراتنا كالقبلات، ولكنها أجابت:

ـ الأبدية!!... أأنتَ أيضاً مجنون مثلي... ؟ هيا إلى الداخل.

وأشارت بيدها... كانت ترتدي قميصاً أبيض تظهر ياقته فوق بلوزة حمراء تشيع كثيراً من الطمأنينة على وجهها، أما البنطال الجينز الذي اختارته فكان لا يزال جديداً في تلك الأيام لم يسمع به أحد. وهرعتُ إلى الدرج، وما إن ولجتُ الغرفة حتى أقفلَتْ الباب ورائي بشدة، وبحركة مسرحية، وكأنها لا تصدق أنها اختلت بي، وقالت: إن دهمنا أحد فجأةً ستقفز من هذه النافذة إلى زهور الحقل وتتلاشى...

Telegram: electronic_library

ورحت أرنو بسكينة إلى كل شيء، وعيناها تتابعانني بفرح غامر: ثمة حاكي[1] على منضدة قديمة قروية كُتبَ عليه «صدى الحب القديم»، وبجانبه اسطوانات مسندة إلى الحائط، وقربه مزهرية وديوان لنزار، وعلى الجدار لوحة غريبة لعاشقَين كُتب أسفلها «كثير وعزة[2]»، وبرهبة تأملتُ مكتبة من غابر الأزمان، كُتبها أوراق صفراء، بينما ارتمى الكمان على السرير بجانب نافذة مطلة على الوادي والمدى والجبال، ورغم بساطة كل شيء... بدت لي الحجرة مملكة رائعة للمحبة... وأرسلت بصري فوق حقول الخريف الخضراء، وتبدى لي الأفق متلبداً بالسحب بينما تغفو شمس الظهيرة على زهور الفناء المجاور وتُبارك المنزل. إن تلك السينما من عناصر الطبيعة قد روت روحي المتلهفة إلى الجمال كما فعلَتْ رشاقة يدها بكمان الذكريات.

وقالت بلهفة.

ـ أية أبدية؟

وبدت عيناها تلاحقان بشغف نظراتي المسافرة إلى أراضٍ نائية ولا تستطيع اللحاق بها، وقلت وأنا لا أزال غائباً:

ـ ما اسم هذه المقطوعة؟

ـ شهرذاد[3]

ـ من فضلك... عودي إليها...

فانقضَّتْ على الكمان من جديد كمن يهب إلى خلاصه، وانسدلت

---

(١) بيك أب

(٢) قال كثير:

كم قد ذكرتك لو أُجزى بذكركم ... يا أشبه الناس كل الناس بالقمرِ

(٣) أستروفسكي

Telegram: electronic_library

خصلة من شعرها، وطيرَتْ ريح النافذة خصلة أخرى فبدت تعزف وكأن الشعر قد أعماها، ينزاح تارةً فتبدو تعابيرها الهائمة ثم ينسدل، بحيث لم أعد أميز بين جمال وجهها وروعة المعزوفة، ثم نظرتُ إلى الوادي وخلته جزءاً من المعجزة، ومن جديد سبحَتْ أحاسيسي وفكري في الشعور الأزلي، وشيئاً فشيئاً بدأ يتحول كل شيء إلى حكاية... وتوقفَتْ فجأةً وأعادت الكمان إلى السرير وجلسَتْ قربي، وسرحَتْ عيناها في وجهي من جديد، وقالت مرة ثانية وقد أسندّتْ مرفقها إلى النافذة:

ـ أية أبدية إذن؟

ـ أليست هذه المقطوعة لأستروفسكي...؟

ـ أجل... هل كنت تتجول معها في الأبدية... وتركتني؟... أنا أيضاً ينتابني إحساس مشابه عندما أعزف أو أقرأ أو أفكر بكَ، يبدو لي وكأنني تحولتُ إلى غيمة وتحول كل شيء إلى ضباب.

ـ إذن لقد كنا سويةً في الأبدية.

ـ ما رأيك أن نموت معاً... فنرمي أنفسنا في ذلك الوادي!؟

ـ ما رأيكِ أن نحيا معاً؟

ـ هيا لنرم نفسينا فيبقى حبنا خالداً.

ولم أقل شيئاً، فرددَتْ:

ـ سأحبك وأنا في القبر.

وأطرقتُ برأسي، فأحاطت بزراعها كتفي ونظرَتْ إلى خدي، ومن جديد بدوت في حالة من النسيان للزمان والمكان: هذا إذن قلب حبيبتي... وهذه مملكتها... حب حتى الموت... يا إلهي... وانتبهتُ

Telegram: electronic_library

إلى أنني لا أزال في ذهول، فتأملتُ وجهها... ولأول مرة أدرك أنها مهما تكلمت فإن فمها يعود مبتسماً بشفتين مائلتين آسرتين... ويبدو أنها حدسَتْ ما أفكر به، وقلتُ:

ـ عودي إلى مكانك... فيظهر جمالك أكثر.

لقد كان التحديق في اللامتناهي هو الذي يوحدنا... لقد كان عند نقطة المطلق يلتقي كل من حلمينا دون أن نعي... ولقد كان فرحنا به يجعلنا نشتعل أكثر وأكثر

وبدأَتْ تعزف أغنية لفيروز سرعان ما عرفتها أيضاً فأخذتُ أصفق مردداً، فتخلَّتْ عن الكمان وهرعَتْ تغني بجانبي وهي تميل برأسها:

لاعبِ الريشةَ واهوى واضفرِ العمرَ ورود
واهوني من ليس يهوى لم يزر هذا الوجود

ولفتَ انتباهي التماع أسنانها، وخيل إليّ أنهم كثلوج رأس السنة، وما لبثتُ أن تأملتُ عنقها المغوي، وتمنيت لو أطبعه بقبلة روحية توازي فتنته، ولكنني عدت ونظرت إلى أسنانها، وخيل إلي أنهم كثلوج رأس السنة، وقلت:

ـ يا إلهي... يا لصوتك الذي يجلب الفرح... هل أنت أيضاً مطربة؟ لقد خيل إلي من فرط مشاعرك ستصلين إلى غيبوبة.

فقالت والبراءة تفلت من إيماءاتها ونظراتها:

ـ وأنا أيضاً شاعرة!

وهرعَتْ إلى ديوان نزار وفتحته وقرأت:

كن مطمئن القلب يا صغيري

Telegram: electronic_library

فلم يزل حبك ملءَ القلب والضميرِ
ولـم أزل مفتونةٌ بحبـك الكبيـرِ

ـ هل من مزيد... يا سيدة القوافي؟

واكتسحَنا الضحك، وقالت وقد سيطرت عليها خفة لم أتوقعها:

ـ وأنا أيضاً راقصة.

وأخذَتْ تتمايل بمرح وتغني لفيروز:

رقصة عَ حديد البواريـد
حب جديد وفرح جديـد
أنا قنديل، وإنت العيـد

وكانت عيناها ترصدان كل ثانية من تعابير وجهي وحركة ذهني، ثم جلسَتْ بجانبي وقالت:

ـ وأنا أيضاً بَصَّارة... أنا أعرف المستقبل... وأنا طباخة وأنا عارضة أزياء وأنا أحبك.

ـ وأنا أيضاً يا روزالين.

وأحطها بذراعي.

ـ قل «أنا أحبكِ».

ـ ألا تتناهى إليكِ دقات قلبي!؟

ـ بل سأكتشف ذلك من راحتكَ.

ـ وخطفَتْ كفي، وأخذَتْ تفكر وتفكر ثم جحظت عيناها فجأةً:

ـ يا إلهي... ثمة كارثة وراء الأبواب... يبدو أن والديَ على الطريق.

Telegram: electronic_library

وهرعَتْ إلى النافذة... والتفتَتْ إلى المنحدر المودي إلى موقف الحافلة... وأبقى الهواء شعرها مرفرفاً وهي تنظر إلى البعيد البعيد، ثم هبط على عنقها حالما التفتَتْ إلي وقالت:

ـ إن الريح تموج بأغصان الشجر فلا يظهر من الطريق شيء.

ـ حسناً أين هي الكارثة؟

ـ أنظر إلى هذين الخطين وكيف يتلاقيان في هذا الوريد القاني وكأن الدم فيه يغلي... إنهما أنا وأنت!

وأشارت بإصبعها ثم أكملَتْ وهي تجلس بجانبي وتتأمل كفي:

ـ ثمة عاصفة على وشك الهبوب!

وكان ذلك أصدق ما سمعت من تنبؤ حتى ساعة كتابة هذه السطور: ألم يكن مرعباً لو صدقتُ حينها عبثها؟

ـ وما أدراكِ بموعدها؟

فأجابت بنبرة هادئة:

ـ أجل قد لا يكون الآن موعدها.

ـ يا حبيبتي.

ولففت ذراعي حول كنزتها، وأحسست بدفئها ينساب إلى قلبي:

ـ لقد أثبتَتْ هذه الزيارة أنك بصارة فعلاً، هل أنتِ أيضاً عارضة أزياء؟

ـ أجل... وسترى.

وقامت إلى شيطنتها من جديد... وفتحَتْ الباب متحدية، ثم

Telegram: electronic_library

عادت بعباءة فلاحة زرقاء، واضعةً يديها حول خصرها وهي تتلفت يمنةً ويسرةً، وفي كل الاتجاهات كأنما أمام جمهور، وأخذتُ ضاحكاً أقول:

ـ حسناً عودي إلى ملابسك الأولى... أرجوكِ.

ولكنها رجعَتْ بملابس جدها، وطربوشه الأحمر على رأسها، فأخذتُ أتلوى من الضحك، لقد أطارَتْ كل كآبة من جمجمتي، وحدستُ أن تبعث بها لهفتي إلى جنون أبعد، فقلت:

ـ وهل أنتِ طباخة؟

وكنت أدرك أنها ستهدأ وتجلب شيئاً ما.

ـ حسناً... حان موعد الطعام.

ـ لا... لا أريد شيئاً غيركِ... توقفي...

ـ إن حبي يأمرني.

وبقيت وحدي من جديد... ورنوت إلى أرجاء الغرفة، إن العبارة المدونة على الحاكي: «صدى الحب القديم»، ولوحة «كثير وعزة» جعلاني أفكر أن هذا المنزل يخبئ رواية غرام مضى وانقضى... ثم ألقيت نظرة على الوادي، كانت الغيوم تقترب من النافذة ولكن الحقل المجاور لا يزال يتنفس دفء الشمس الحزينة... وسرعان ما قدمَتْ وقد جلبَتْ شاياً وتيناً فاخراً أحمر كبيراً، وجلسَتْ قربي قائلة:

ـ لقد أعددتُ لكَ حلوى الخميس الماضي... لِمَ لم تحضر؟

ـ آه... لقد طاب لي النعاس فنمت.

فنظرَتْ إلي وقد جحظَتْ عيناها بطريقة مسرحية:

Telegram: electronic_library

ـ هكذا إذن...

ـ ولكنني لم أغفُ إلا وأنتِ في قلبي.

فلمعَتْ عيناها بنظرة رقيقة، وقلت مازحاً:

ـ أهذا إذن طبيخك؟

ـ ولكنني وضعتُ قلبي في كل حبة... إن كل تينة من تلك قد قُطفَتْ من شجرة وأنا أفكر بك، وكل شجرة قد اخترت من بستان كامل.

ورغم أن كلماتها نفذَتْ إلى أعماقي كما لم أسمع في يوم من الأيام، إلا أنني اخترت المناكدة:

ـ الحجة لا تقلي العجة.

ـ أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ إذن قل لي ما الذي جعل النوم يطيب لك فقط يوم الخميس؟...

ووضعَتْ أصابعها على خناقي مكملةً:

ـ لن أتركَكَ حتى تعترف... لقد بدأتُ أرتاب بك.

ـ حسناً... إهدأي إهدأي... لقد جلبت لك هدية...

عندها فقط تركت رقبتي، وأخذَتْ تنظر إلى يديَ جاحظةً بصورة تبعث على الضحك وأنا أفتح حقيبة المدرسة وأخرج علبة بحجم كتاب حُزمَتْ بشريطة حمراء، وخطفَتْها ثم أخذَتْ تفضها:

ـ آه... أهي مرآة...؟

Telegram: electronic_library

ـ بل صورة!

ـ أين الصورة؟

ـ أنظري إليها وستجدين أجمل فتاة في العالم.

ـ أيها الماكر.

وتأملَتْ نفسها بالفعل... ثم قلبَتها وقرأَتْ: «الزهور تخجل من جمالكِ»...

ـ وأنا يجب أن أهديك شيئاً.

وقامت بسرعة، إلا أن ثديها لامس ذراعي ورغم أنني لم أقصد، إلا أنها نظرَتْ إلي نظرة ماكرة مؤنبة وخرجَتْ.

ورنوت من النافذة إلى الغيم المبعثر من جديد، وإلى بحيرة بعيدة تومض بين الروابي، ثم أخذتُ أتذوق حبات التين... يا إلهي... لقد كان فرحي الرباني بها يُطير من نفسي كل هوىً، إنني لم أكن أشعر بغريزتي، إن فرحي بحبي كان أشبه بالمشهد الساحر وراء النافذة، أو بسيمفونية «شهرزاد».

وعادت ومعها وشاح أحمر، ولفته حول رقبتي، وأخذت تتأملني:

ـ يا إلهي كم تبدو جميلاً به.

وأردفَتْ:

ـ احتفظ به إلى الأبد.

ولا يزال معي حتى الآن، هو والزر والرسائل وخصلة من شعرها ستعطيني إياها لاحقاً.

وقلت وأنا أضعه في الحقيبة:

Telegram: electronic_library

ـ الآن لن تنتابني الغيرة من عماد... وقد بدوت جميلاً به.

واجتاحتها رعشة ممزوجة بالرعب:

ـ عماد...! أأنت تغار حقاً؟...

وأحسستُ أن مشاعرها في آخر حدود التوتر:

ـ أتعلم... في نفس اليوم الذي ذهبتُ فيه إليه، رأيت نفسي في الحلم بين الأشجار مرةً ثانية، أفتش عن شيء، وأبحث وأبحث وأطيل التحديق في الأجمة والحشائش والتراب والحشرات، ثم وعيت بصورة ما أنني أبحث عنك، لأنني كنت سعيدة بعذابي، ولكن فجأةً انفتح أمامي كهف بعيد، وخلتُ أنك هناك، فأخذتُ أنادي فلم تسمعني، وحين دنوتُ وجدت عماداً جالساً في بطن الكهف، وعيناه ميتتان لا تقولان شيئاً، ثم تحول هو نفسه إلى أبي، فاستيقظت ونظرت حولي، وبحثت عن صورة لك لأتشبث بها فلم أجد... بالمناسبة هل جلبت معك صورة؟

ـ لا.

ـ حسناً... سأصورك... ابق كما أنت.

ـ لِمَ؟

ـ يقال أنه وُجِد شعراء أمضوا حياتهم وعيناهم مثبتة بصورة المحبوب.

وتمنيت لو أجرؤ أن أعانقها عناقاً إلهياً يحاكي أشواقي الروحية كلها، ولكنها قامت وجلبت كاميرا أميركية صغيرة كانت رائجة في ذلك العهد، والتقطت لي صورة ومن ورائي إطلالة النافذة وأخبرتها ما جرى بيني وبين عماد على رصيف البحر فلم تصدق ما أتلفظ به:

Telegram: electronic_library

ـ رباه... أنا خائفة أن يحدث لك مكروه... ولكن اسمع إن ظل هذا الشال حول عنقك لن يصيبك أذى.

وأخذَتْ تُوشِح به عنقي من جديد... مِثلَ أم هَلِعَة تخشى على ابنها فتضع له حجاباً، وقالت:

ـ دع هذا الشال يكون رمز حبي.

وفجأةً... قصفَ الرعد من بعيد... فانقضّتْ علي خائفة وضمتني، ولكن أيضاً كأم... ونظر كلانا من النافذة... كان فصل الأمطار يهرع نحونا فرحاً مجنوناً، وأخذَتْ تشمني في كتفي وصدري ووجهي وهي تضحك:

ـ إن بكَ عبير كل الفصول.

ونظرتُ إلى أسنانها من جديد... وخيلَ إليَّ أنهم كثلوج رأس السنة.

ـ لقد قلت لكَ ثمة عاصفة على وشك الهبوب.

فقمتُ لأغلق النافذة... ولكنها صاحت:

ـ لا.

ثم أردفَتْ:

ـ دع الرياح تملأ صدرينا... دع العاصفة تذرو هذا البيت فلا يبقى منه حجر فوق حجر.

ـ رباه... لِمَ... إنه يخبئ ذكرى قصة حب.

فذعرَتْ:

Telegram: electronic_library

ـ قصة حب!... من أين علمتَ بذلك؟

من لوحة «كثير وعزة» ومن العبارة المكتوبة على الحاكي.

ـ آه... يا إلهي... ظننتُ أن ابن عمي قد أخبرك بهذا أيضاً.

وروت لي قصة غرام جدها، وكيف جدتها لأمها أهدت البيت تلك اللوحة لهيامها الشديد بتلك الرواية، وكانت قد سلخَتْ عاماً كاملاً ترسمها، ثم ختمَتْ:

ـ آه... كم تبدو جميلاً بهذا الشال الأحمر... إن هذا البيت يخبئ أيضاً ذكرى الأدباء أجدادك.

ـ أجدادي!؟...

ـ أجل... تعال وانظر.

وأمسكَتْ يدي... ووقفنا أمام المكتبة... وهناك كانت مجلدات ودواوين ناصيف اليازجي وابراهيم وتوفيق وندرة وكمال، كان أدب آل اليازجي كله متجمعاً هناك، وخطفَتْ كتاباً لإبراهيم وأخذَتْ تنشد باسطة يدها نحو الأفق كأنما هي التي أتت به:

سلامٌ أيها العُربُ الكرامُ وجادَ ربوع قطركمُ الغمامُ

ـ كفى كفى... ولكن ما الذي جعل هذه الكتب تتجمع هنا؟

ـ كيف لماذا؟... ألم ينحدروا من قرية «مرمريتا» التي بجوارنا... وقد كان جدي شاعراً... وكانت تطيب له ندوات القرية الأدبية.

ولمحنا البرق في زجاج المكتبة، وحينما التفتنا إلى النافذة هدر رعد مخيف ينذر بوابل من المطر:

ـ هل ثمة هاتف في المنزل؟

Telegram: electronic_library

ـ ولا حتى في القرية.

وكما تهرع صغار الطيور إلى الأعشاش، هكذا عدنا إلى الكمان، وتركنا نهاوند «الوفاء» يدفئ قلبينا، ولما سألتها أين تعلمَتْهُ، فوجئت بها تقول:

ـ في دار الألحان.

ـ حقاً...؟ إذن لا بد أنك قد تعرفتِ على أختي هناك، وقد قالت لي يوماً أنها دعت فتاة اسمها روزالين إلى حفلة عيد الحب مع ابن عمها.

ـ آه... لقد تذكرتها فعلاً... إذن لقد كانت أختك.

ـ ولكنكِ اكتفيتِ بأن مررتِ في الصباح مع فرقتكِ، وأشعلت ناراً مقدسة في قلبي.

وبدا في عينيها من جديد يقرع جرس الذكرى، وقلت:

ـ لماذا اخترتني من أجل باقة الياسمين؟!

ـ لقد بدوتَ فتى أحلامي... وأنتَ غارق في أفكارك... واختلج قلبي لأول مرة في ذلك الصباح الضبابي... لقد أحببتك من أول نظرة... وأنت؟

ـ لقد عاهدتُ ذلك العيد القديس فالنتاين أن أحب أول عابرة سبيل حباً سرمدياً لا تشوبه شائبة.

وتأملَتْ تعابير وجهي بدهشة:

ـ وماذا لو كانت عجوزاً شمطاء.

ـ ولو كانت عجوزاً شمطاء.

Telegram: electronic_library

ـ أرجوك لا تقل ما يجعل القلب ينفطر.

ـ كنتُ واثقاً من العناية الإلهية.

ـ وأين تبخترتَ طيلة الصيف؟

ـ هربني والدي إلى تدمرين حيث يعمل.

ـ هل كانت تدمرين جميلة؟

ـ لا أعرف... كل ما أذكره وجهك المبلل بالشمس يبتسم لي ويتبعني ويضيء قنوطي.

واتسعتْ ابتسامتها دون أن تلحظ.

فأردفتُ:

ـ في كل مكان، كان هناك شمس... شمس... وشمس لا تنتهي، وشفتاك المبتسمتين في قلبي... مثل دواء للخلاص... تبددان كآبتي... وأنتِ؟

ـ لقد جعلتني هذه الطبيعة شاعرة... وقد دونتُ عدة قصائد، سأجلبها لك لتقرأها.

وفجأةً... بدأ محرك حافلة قديمة يعكر صمت الوادي... فقفزَتْ مسعورة:

ـ يا إلهي... إنهم أهلي.

وألقت نظرة من النافذة.

ـ تعال وانظر.

وبدت حافلة قديمة خضراء تتهادى بوقار بين الشجر، بحذاء سور المقبرة، متجهة إلى مركز القرية.

Telegram: electronic_library

وغدَتْ حبيبتي متطيرة حتى أنني صدقتُ ذلك.

ـ تعال اختبئ هنا... لا هنا... انتظر الأفضل هنا.

وأشارت إلى قلبها.

ـ أنت قديسة وشيطانة بنفس الوقت.

ـ أأنا شيطانة ؟.

ـ ومع ذلك يمنحني حبك طهارة لا عهد لي بها.

ـ والآن توارَ... بل تمهل... بل دعني أكتشف إن كان ثمة أحد في الجوار.

وفتحَتْ الباب، وهبطنا الدرج، وتلفتَتْ يمنةً ويسرة... ثم أشارت إلى البعيد البعيد:

ـ في المرة القادمة سنقصد ذلك المزار.

ـ الوداع... إذن.

ـ لا ترحل!...

ولأول مرة ألمح الدمع في عيني محبوبتي

ـ قل كلمة أخيرة.

ـ سنضع عهداً ألا ينسى أحدنا الآخر إلى الأبد.

ولكنها أخذت ترتعد... وعيناها تذرفان الدموع أكثر... بدا واضحاً أنها تتمزق بين مغادرتي وبين خطوات أهلها التي تصم أذنيها... بين كونها ستسير على الخناجر إن قررت أن تتبع ما يميله عليها قلبها، وبين نظراتها التي تنساب علي كأنما تريد أن تحمل معها كل قسمات وجهي وكل تعابيري كأنما تراني لآخر مرة... فارتأيت أن أمضي دون كلمة أخرى، ولكنها صرخت وأنا أبتعد:

Telegram: electronic_library

ـ يا صاحب العهد.

فالتفتُ إلى الوراء... بينما انفجر الرعد فوق المدى...

ـ لا تنسني.

فأومأت برأسي:

ـ سأذكر نهاوند «الوفاء» إلى الأبد...

لقد كانت بالنسبة لي حبيبة العمر، بينما كنت أنا رفيق نحو الهاوية... وبينما كنتُ أودع مملكتها ملتفتاً بين حين وآخر من بعيد إلى البيت الذي غرق في المطر مغنياً:

هَـذي دارهــا
يا عينُ إن تشردين
يا روحُ إن تهتفين
يا قلبُ إن تسـألُ

انقضَّتْ هي على الهدية، وأخرجَتْ المرآة من الصندوق ثانيةً، وأخذت تقرأ... «الزهور تخجل من جمالكِ»... وهي تبكي من الفرح والحزن...

Telegram: electronic_library

- ٤ -

فوجئتُ في الأسبوع التالي برسولة المحبة تقول أن لا آتي لأن أمراً طارئاً قد حدث، وعادت وأخبرتني الشيء نفسه في الأسبوع الذي يليه، وخشيتُ أن يتكرر الأمر في الخميس الثالث فكتبتُ لزهرة الزهور رسالة من انتظاري وشجني وأعطيتها للرسولة وهي تحمل الاعتذار الثالث.

فقد كان عماد لا ينفك يبحث عن دليل على علاقتنا يواجه به عمه ليدمرها. فقد نشأ متكبراً دون حدود، محشواً بأنانية تختفي تحت قناع من الطيبة، عنيداً بلا تسامح إلا إذا أدى هذا إلى تعزيز مظهر العظمة لديه، معتقداً أنه من جبلة غير جبلة الآخرين، يجعله ذكاؤه شديد الخطر إن قرر أن يقتل بسبب غيرة ما، ينتقل مثل عمه إلى الأفعال سريعاً، مما جعلني أفكر مراراً بطبيعة ذلك الجد العاشق الذي أضاع مسدسه. لقد كان عماد يعتقد أن غيرته ليست سوى بسبب حبه، ولكن إذ أتذكر الآن تعابير وجهه أقرر أنها لم تكن سوى محاولات للإفلات من قصور سيكلوجي ما، أو أحد أعراض فقدان التوازن الوجداني يتمظهر بميل واضح إلى التزعم والغلبة... وفجأةً... في تلك الأيام... صدر كتاب «صادق العظم» عن «جميل وبثينة»، محدثاً مفاجأة جعلَتْ الناس تتهافت على شرائه، ومثيراً لغطاً قلب كل المفاهيم. وما إن قرأه عماد، حتى تساءل ذا الأنا المتضخمة:

Telegram: electronic_library

«ماذا لو أن كل ما تفعله روزالين فقط لتزيدني هياماً بها كما حدث مع بثينة؟ يجب أن أذهب وأبرهن لها أن حبي لم ينقص أبداً». فحين اجترحَ «صادق العظم» كتابه عن «جميل وبثينة» صدمَ الناس صدماً، مغيراً كل ما ظُن عن ظلم القدر للعاشقَين، لقد سطع في داخله ضياء روح ذلك البدوي المغرق في القدم، فشكَّ في وضع الدهر أسواراً بصورة دائمة بينهما: ففي البداية يكتب جميل بها قصيدة مُشبباً تجعل والدها يزوجها لثان ويتركه متيماً. ثم تهوى شخصاً آخر على زوجها خالد اسمه «حجة الهلالي»، ويظل جميل تحت وطأة الفراق... حسناً هذا ما أوحته المدرسة والأفلام والمسلسلات، وفجأةً يصدم «صادق العظم» الناس بالحقيقة، لاغياً كل النصوص القديمة وكُتب الجامعات، فالتساؤل عنده يبدأ منذ قصيدة الحب الأولى، فجميل يدرك أعراف البادية جيداً: «من يشبب بفتاة يُحرم الزواج منها»، ومع ذلك بدلاً من أن يكتم حبه ويداري هواه انطلق يتغزل بها، وتغتر بهيامه. فهل كان ينشد الزواج أم العكس: عرقلة الوصول إليه؟ لقد كان زينة الشباب وفارس الفرسان، وكان قومه ذَوو مكانة من نفوذ وثراء، وكان زوجها ضعيفاً أعور دميماً، إذن والحال على هذا النحو ـ يتساءل صادق العظم ـ ما الذي منعه من افتدائها من زوجها؟ علماً أن شريعة الفروسية في البادية كانت تعترف بحق الأقوى وتحترمه، وبذلك يُبعد عنه وعنها شكوك الزنى والمخاطر. فهل كان فعلاً اللقاء هو المنشود أم التمسك بالعوائق لتكون زريعة للفراق ولإستعار الحب من بعيد أكثر فأكثر؟ هل فعلاً يريد أن يتزوجها وينجب الأطفال ليعيشا حياة رتيبة لا عشق فيها ولا انفعال؟ أم يريد أن يهيم على وجهه في الصحراء ناشداً اشتداد اللوعة وعمق القصائد وتحدي التقاليد، بينما هي تتماهى معه وتدفعه إلى ذلك؟... ولكن فجأةً يتناهى

Telegram: electronic_library

إلى جميل أن بثينة قد وقعت في حب «حجة الهلالي» فهل اغتبط بهذا؟... لا شك في ذلك، فها هو عائق جديد ـ قد تكون ابتدعته بثينة ـ يزيد المسافة المنشودة كبراً، وها هي نار العشق والذكريات تزداد تأججاً في نفسه، ها هو لا يتأثر بأفعال المحبوبة، وفي عقله الباطن أنها ما فعلت ذلك إلا عمداً لتزيد شرارة الحب اضطراماً في قلبه، إنه يعف عن امتلاكها بشتى الوسائل فيما لو قُدمت إليه بأسهل الطرق، لأن المطلوب هو حدة الانفعال إلى أعلى درجات التوتر الممكنة، فكيف لا يغتبط عندما يرى القدر قد ألقى إليه بحجة الهلالي كعائق آخر غير زوجها، الذي لم يجرؤ على حماية عرضه من جميل عندما رآه يبيت عندها إلى الفجر مرات عديدة. وحتى عندما أهدر السلطان دم جميل، ظل يتردد إلى خيمتها بأساليب شتى، وقصارى ما كان يفعل خالد أن يشكوه إلى أبيها وأخيها فيَشُدُّ عليهما بالسيف فيهربا... ولكن ما الذي كان يفعله جميل في مضاربها حتى الصباح؟... كانا يستلقيان على ظهريهما ينظران إلى النجوم حتى يُغيبها الفجر، في حالة روحية لم يعرفها أحد سوى بني عذرة، تأمل ماذا يقول:

وكان التفرقُ عند الصباح ... عن مثل رائحة العنبر
خليلان لم يقربا ريبةً ... ولم يستحقا إلى منكر

وفي مكان آخر:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ... ويحيا إذا فارقتها فيعود
لئن كان في حب الحبيب حبيبه ... حدودٌ، لقد حلَّتْ علي حدود

وعلى وقع ذلك الكتاب طاش صواب عماد مفكراً: «قد لا يكون القدر هو الذي يفرقنا، ولا الدهر يريد تمزيق حبنا، وإنما روزالين تريد أن تُعيد لهفتي القديمة وحنيني وسنين الطفولة، فدبرَتْ مكيدة أشبه بما فعلته بثينة بحجة الهلالي. وهكذا مضى

Telegram: electronic_library

إليها ليبرهن لها أن غرامه القديم لم يَشبْهُ أي فتور محدثاً نفسه على الطريق: «بالتأكيد لن يكون شخصاً مثل حُجّة الهلالي سوى طارئاً بالنسبة إلى بثينة، وهكذا ستعود إليّ يوماً ما روزالين، فما الحب إلا للحبيب الأول... ورمى وردة حمراء ثانيةً على سريرها، فقدمت إليه بعد حين، وطرقت الباب:

ـ كاد الانتظار يودي بي إلى اليأس... تفضلي... أهلي في الداخل.

ـ لم أجيء لأدخل... بل لأقول لكَ أنني أكرهك.

ـ لو أن لذاكرتك نافذة مفتوحة على الماضي... إذن لأطللتِ على سحر طفولتنا... لكنتِ...

ولكنها قاطعته:

ـ لقد فعلتُ... ولكنني بتُ لا أعرف بأي رِجل أرقص معك.

ـ عندما يرخي الليل سدوله... وتهرعين إلى وحدتك حاولي أن تتذكري كيف...

ـ جئت أحاول للمرة الأخيرة أن أوصل لك رسالة كراهيتي.

ـ قالت وهي تعلم أن عقله سيحلق في أجواء من الحماقات.

ـ لا أعتقد... أنتِ لا تكرهين... بل تريدين مني أن أعبدك بدلاً من أن أحبك وأنا أقول لك أنني أعبدكِ...

ـ بل إنني أكره... ألستُ من عائلة المسعورين نفسها، التي تنتمي إليها...؟ إنني إما أن أموت حباً أو أموت كرهاً... ولكن ذلك كله لم يعد مهماً الآن!...

ـ أنتِ تجعلين الصرع يقطع أنفاسي جراء هذا الكلام.

ـ قلت لك لم يعد أي شيء يهم... لقد ضاع كل حب وكل كره... وزَرَتْ قصص الغرام الرياح...

Telegram: electronic_library

ـ لم أفهم... ماذا تنوين... ماذا تقصدين؟

ـ لقد غدا لك غريم ثان.

ثم أردفَتْ:

ـ لقد زارنا ابن خالتي وليد فجأةً الخميس الماضي، وكما تنقض الحدأة على صغار الطير هكذا سينشبُ أظافره الخميس القادم ويعود بي إلى سويسرا.

ـ وليد؟...

ـ أجل.

واجتاحه شعور قوي بالدونية... وقال وقد سيطر عليه ذهول، كأنه تحت تأثير سحر رهيب:

ـ لقد آن الأوان أن ألبس عباءة الليل... وأتحول إلى قاطع طريق.

ـ وأغلق الباب في وجهها.

ـ ويلكَ... ماذا تنوي؟

ـ ستأتيك الأخبار الخميس القادم.

ـ كم تغيرت يا عماد... تريث.

رددَتْ... ولكنه لم يسمع شيئاً... وبينما أرخت العنان لدموعها، أرخى هو العنان لفطرته... لقد غدا ماهراً حقيقياً في المحاكمة والمنطق اللامعقوليين... ولم تنقطع دموعها حتى حدست أن حماسته تلك ربما ليست سوى اعتباطية أشبه بجنون العظمة.

ما أقصر عمر الزهور... إن الصَّبية ما إن تقع في الهوى حتى تجد نفسها متزوجة وعندها ولدين، وقد ضاع من عينيها كل حب... ففي الخميس التالي تقدم وليد وخطبها، وهي لا تصدق ما ترى عيناها،

Telegram: electronic_library

ولا تعي سوى بنظرات الوالد كمدية في خاصرتها، ولكن عماد كَمِنَ له بين المدعويين، وانتحى به جانباً:

ـ بعد الزواج سيكون بانتظارك كأس الحزن لتتجرعه ببطء إلى آخر العمر، وليس كأس السعادة والحب.

ـ إلامَ ترمي؟

ـ لقد أحبَتْ شخصاً قبلك.

ـ وما في ذلك؟

ولم يحر عماد جواباً، وفوجئ به يكمل:

ـ إن كانت هذه الشجرة لم تهزها ريح الحب بعد، فهل هي شجرة شوك، إن كانت لا تعرف كيف تحب فكيف ستحبني، إن كانت لم تتعلم فن الهوى فكيف ستهواني، إن كانت بلا عاطفة بلا غوى فهل تحولَتْ إلى الحقد مثلاً؟ إن كان قلبها لا يخفق فهل قُدَّ من صخر، وإذا كانت حتى الآن لم تعرف كيف تغرم بأحد فهل يمكن أن يقال أنها ستغرم بي؟ هل إن مررت بهذه الشجرة سأقطف ثماراً أم سيجرحني شوكها، عجيب ألا نتغير نحن العرب!...

ـ أجل... ولكنها لا تزال متيمة به... بل تعبده.

ـ إن كان ما تقوله صحيحاً فلم إذن تحضر إلى الخطبة.

ـ لأن والدها على الأرجح يهددها بالموت.

ـ يا إلهي... إننا لن نتطور أبداً... لقد اختلف الأمر... ولكنني سأتحقق من كل هذا أولاً.

وصُعق مرة ثانية وروزالين تؤكد له صحة كل ذلك... وتجزم

Telegram: electronic_library

له أنها كانت عازمة على الهروب... وترجوه أن يفسخ الخطوبة بالهاتف، دون أن يشي بما تبوح وإلا لن تكون الفجيعة أقل من دمعة على قبر، وبدا لها في عينيه أن العاصفة ستمر، بينما خشي هو لصغر سنها أن لا تكون تعي تماماً ما تقول، فترك لها هذه العبارة:

ـ هذا رقم هاتفي... إن تغير رأيك قبل رحيلي... لقد أحببتك من أعماق قلبي.

لم تواجه أسيرة الحب القديم أحداً لم يهواها منذ كانت طفلة، فقد كانت تلك الابتسامة النائمة على شفتيها تظهر دونما إرادة منها وكأنما من نور داخلي... إن ذلك الجمال غير المتفاخر والفؤاد الأشبه بقلب طير أسير جعلاها تؤمن بمحبة الآخرين فلا تخون أبداً خلجات قلبها.

ولكن عماد ظل ينام والجحيم في رأسه، فقد كان يعلم أنه حوَّلَ اتجاه إعصار كان سيضرب قلبي كما يجتاح مذنب كوكب ما، فعاد يبحث عن دليل على علاقتينا يواجه به عمه وليس في نفسه عزاء أو أمل سوى «حجة الهلالي». إن مجتمع ذلك الزمان والذي لا يزال حتى الآن يعتبر أن تمتطي امرأة دراجة خطباً عظيماً... والذي لم يعالج مسألة الحب والغيرة سوى بمزيد من التحريم والتزمت قد أصاب جيلنا بعدد لا يحصى من التشوهات، إن الافتقار إلى المعرفة النفسية، وإلى حرية التعبير عن العواطف قد أنشأ أُناساً لا يمكن إلا أن يكونوا عصابيين، فمن شبَّ على كبت عنيف شبَّ واهناً ضعيفاً، استنفذ الكبت قواه فإن ضغطت عليه الدنيا خارت عزائمه وانهار.

وظل الوالد يغلي فريسة أعصابه وخمره وقماره... ثمة تنين أنجب طفلة... ولكنه أسماها محبة... كثيراً ما تكون المحبة ابنة

Telegram: electronic_library

تنين مرعب... «من أراد أن يكون إنساناً عظيماً يجب أن يكون وحشاً عظيماً أولاً». هكذا قال ألدوس هكسلي. أما أنا فأقول لكم من أراد أن يكون محباً عظيماً يجب أن يكون إن تسامى بنفسه حفيد الأبالسة وليس القديسين[1].

(١) يقول نيتشه: بقدر ما تكون فطرتك أكثر وحشية تمتلك مساحات أرحب للتسامي.

Telegram: electronic_library

- ٥ -

وعندما تسلمَتْ روزالين خطابي أحستْ كأنما بُعثتْ من بين الموتى، وتنفست الصعداء كمن يخرج من قبر خانق، لقد أضنت الأيام العشرين الماضية جوارحها إلى حد أن أعراض الاكتئاب قد بدأت تعود وتجعلها تعتقد أنها غير أهل لشيء، وقد بدا لها أن أقرب الناس لها أشدهم عليها، حتى معلمة المدرسة قد نصحتها بما أملى عليها والديها، وخيل إليها أن وجوه أهل القرية كلها تتآمر على سعادتها، وأنها وحيدة وحيدة كما لم تكن في يوم من الأيام، وفجأة هبطَتْ عليها رسولة المحبة بالفرح الأعلى، وقرأَتْ:

حبيبتي:

مرت ثلاثة أسابيع منذ شيعتني بدموعك آخر مرة وأنا أحس أنكِ لن تنسني طيلة العمر... ها قد مرت دهور مذ أقلعَتْ أشرعتك في بحر قلبي... ها قد اقترب الشتاء ونشر الغيم ظلله فوق البحر، فهل تبدل حال قلبك...؟ أرسلي في طلبي نسمة خريف باردة، أو ورقة صفراء عليها قبلة، وإلا اجتاحتني الأرواح القديمة والشجن الطويل المضني، بعد أن بددتِ كل أحزاني.

لقد هبَتْ الرياح عاتية الأسبوع الماضي، وتساقط مطر غزير، فوضعتُ الشال الأحمر، فقالوا لي إن عيد الحب لم يأتِ بعد، ولكن

Telegram: electronic_library

الحنين الذي كان يشيع من خيوطه ويلفح عنقي يجعلني أشعر وكأنني أتجول على كوكب تغشى فيه روح المحبة مثل الضباب كل الأمكنة، فأبتسم في سري وأغدو رقيقاً حالماً وأنا أرنو بهيام إلى الناس والبحر وأوراق الخريف.

إيه... حبيبتي... أيتها المولودة متوقدة وحزينة، إن الملائكة ذاتها لتذرف الدمع إن رأت ابتسامتك... من يوم لآخر يمنحني حبك غبطة ليس عليها أحد على الأرض... يا كاهنة الحب صلي لنا شعائر الهوى كل ليلة، يا شاعرة النسيان أسدلي ضبابكِ على أشباح ماضينا، يا أميرة الألوان أرسلي في طلبي... نفسي تهفو إلى مملكتك وأشيائك وحنينك.

حبيبك المخلص

وما إن أكملَتْ الخطاب حتى تلاشى الهمود في سحنتها، كما تمحو أشعة الشمس قطرات الندى، وأشرق وجهها مثل صباح هادئ، ولكن صدرها لم يطق صبراً حتى الخميس التالي، فأوعزت للرسولة أن تقول لي أنها ستلاقيني مساء السبت في محطة القطار حوالي السادسة.

كانت والدتها قد قررت أن تبيت ليلة السبت عند أختها لتبحث وإياها في سر فسخ الخطوبة، فقررت أن تذهب معها، ولكنني فوجئت في المدرسة بأنه لا يوجد محطة قطار عندنا، وأخذتُ أسأل بلهفة في الشوارع، وكلهم يؤكدون أن هذه المدينة لا تعرف القطارات، مما جعلني أنام مغتماً كئيباً. ودهشتُ أكثر بعد يومين عندما وصلني منها الرسالة الحزينة التالية:

Telegram: electronic_library

إلى صاحب العهد

كم كان ثمةَ أناس يا حبيبي على أرصفة المحطة، كم كان هناك أناس! وعينيَّ تفتشان وتتوهان بين المعاطف والمظلات، كم نزل أناس وكم صعد أناس! كم تعانقت ياقات ورُفعت قبعات! وقلبي المحموم ينتظر أن يرى جبهتك ويختبئ في ابتسامتك. كم كان ثمة أناس يا حبيبي! كم كان ثمة أناس! كم صفرت قطارات ورحلَتْ أخرى! كم تساقط مطر على النوافذ وكم اغرورقَتْ أرصفة! وبقيتُ وحيدة، وحيدة يا حبيبي، أنتظر أن آخذك معي إلى مزار الحب، إنك يا حبيبي وإن لم تأت، وإن نسيتني ملائكة الماضي، وإن بقيت جالسة على مقعد المحطة المعتمة عشرين سنة، سأظل أقول لك: يا حبيبي... إن يدي ممدودة فهيا بنا إلى المزار البعيد، إنك وإن لم تأتِ قد أتيت، وإن لم تغرقني عيناك بالوعود قد أغرقتني، وإن لم تحبني قد أحببتني، إنك تغمرني كما يغمر المطر ظلمة المحطة... كم كان ثمة أناس ذلك اليوم يا حبيبي... كم كان ثمة أناس! وكيف تبخروا جميعاً ولم يبق سوى طيفك ينعكس من النوافذ الغريقة والمصابيح الواهنة، ومن إطلالات الغيوم وظلال الغروب على السكك الممطرة... ومن ابتسامات المستقبلين، ومن كل شيء، كل شيء، كان حبك يومض في غربة قلبي، خِلتُ السحب السود ومضت بحبك، كل نوافذ المطر لمعت بسنا غرامك، تدعوني أن أبقى منتظرة وحيدة عشرين سنة... عشرين سنة من البرق، عشرين سنة من المودعين والياسمين. كم كان ثمة أناس مروا أمامي وعبروا! كم كان ثمة أناس! حتى لم يعد في المحطة إلا الفوانيس خافتةً وعناد المتسولين، وخريف يمطر رذاذاً أسود على السكك، وفتاة أضاعت حبيبها، منسية كصندوق لجمع الأحزان.

روزالين... حبيبتك

Telegram: electronic_library

ما إن أنهيتُ الرسالة حتى راودني شعور بأن ثمة حزناً وليداً يحبو على صدرها، وأن هذا العتاب الأشبه بالندب لم يكن ليصدر لمجرد اختلاف في المواعيد: «لا بد أن وراء هذا الأسلوب الكئيب ثمة سر. وأدهى منه لغز تلك المحطة الغريبة» رددتُ نفسي ومضيتُ إلى الهاتف وسألت الاستعلامات عن عناوين كل محطات القطارات، وصُدمت أكثر بأنه لا يوجد سوى قطارات الوقود والبضائع في سوريا كلها.

ورغم تكرر لقاءاتنا كل خميس، كنت كلما سألتها عن المحطة العجيبة تقول لي: «إنس الأمر».

واكتشفتُ سر أحزانها عندما قصت لي عن السويسري وتفاصيل الأيام العشرين التي أوهنَتْ أعصابها.

فقلت:

ـ حبيبتي... لا بد أننا ذات يوم متزوجان.

فأجابت:

ـ من قال أنني أريد أن أتزوجك... أنا أريد أن أحبك فقط.

وكنا عندها قرب المزار البعيد، وكنت أردد مع نفسي: «لا بد ذات يوم سأدرك غموض المحطة».

وكانت رسولة المحبة تروح وتجيء في الأسابيع التي لا نلتقي فيها بالرسائل التي كانت تبدأها بـ«إلى صاحب العهد» بدلاً من «إلى حبيبي» وكنت أرد عليها «إلى صاحبة الياسمين». وفجأةً انقطعت رسولة المحبة عن المجيء، وعندما سألتُ روزالين عن السبب في أحد الأيام، وكنا نجلس قرب كرم اصفرت أوراقه ولفحه البرد، أسرَّتْ لي وأنا ألمح الغيرة في وجهها بأن رسولة المحبة قالت لها يوماً:

Telegram: electronic_library

ـ إن عيناه تمنحان بركة غامضة...

ثم أكملَتْ ضاحكة بأنها شكَّتْ بها متذكرةً قول المتنبي:

مالكَ كلنا جـو يا رسـولُ أنا أهـوى وقلبكَ المتبولُ
كلما عـاد منْ بعثتُ إليها غار مني وخـانَ فيما يقولُ

فامتنعَتْ عن بعث أية رسالة بعدها.

باسم الحب كنا نمضي إلى الكروم البعيدة ومزارات القديسين، وطالما صعدنا قلعة الرياح ووقفنا تحت القناطر ونظرنا إلى الأقاصي الشاسعة للسهوب المترامية. وكانت آخر أيام الخريف مشمسة أحياناً، وأحياناً يلفح الضباب كل شيء. وحين كنا نلزم البيت هرباً من البرد، كنا نلوذ بالكمان والحاكي والأشعار، أو تشغفنا مسرحية الطبيعة وراء النافذة، فيلتصق وجهانا بالزجاج، وكنت أعلم منذ ذلك الحين أن الغبطة الروحية تلك ستستوطن حياتي كلها.

وكانت ترتعش كلما لامستها، رغم أنني لم أدنُ من جسدها إلا كما يقول ناصيف اليازجي:

أهوي عليه وفيَّ عفة يوسف حتى يميل وفيه عفة مريمِ
فيروح بين صبابتي وحنينـَه وأروح بين حنينه وتبسميَ

فرغم أن شفتيها كما السحر، إلا أنا رغائبي كانت تغيب تماماً كما يحدث عندما يجلس عازف وراء بيانو، ويعانق المتعالي. أما عنها فربما الأمر نفسه، فقد كنت أنتبه إلى أنها ما إن تراني حتى تغدو مثلما يدخل أحدهم صالة سينما معتمة ما إن تشده الصور حتى ينسى ما سبق من حياته... وقد يكون الأمر أعقد من ذلك إلا أنني لن أتمكن من الجزم ولو تفحصت كتب فرويد كلها[1].

(١) فرويد: من الممكن اكتشاف نزوعات جنسية تفعل فعلها بصورة لا واعية في ما ندعوه الحب النقي.

Telegram: electronic_library

وكانت تميل دائماً إلى أن تبدأ بلحن «شهرزاد». لقد بدا دائماً لكلينا سيمفونية لا تُنسى، ونختتم بنهاوند «الوفاء». ونعكف على قصائدها التي كانت تشعرني «برهبة أمام الحب»... وأتذكر كم كنت أحب ذلك الحاكي فنستمع إلى أسطوانات قديمة رائعة لم يعد أحد يُنصت إليها الآن: «بحيرة البجع»[1]، «القدر يطرق بابي»[2]، «الفصول الأربعة»[3]... كلها غدت نسياً منسياً منذ غزا مطربو عصر الانحطاط الفن العربي مقامرين على البلاهة البشرية بوقاحة.

ومن احتكاكنا بالفن عرفنا سر كينونتنا، وتعلم كل منا من الآخر كيف يكون طاهراً، وكانت تعيد علي في كل لقاء وهي هائمة قصة غرام جدها، وتبالغ فيها وتضيف إليها، وهي فخورة بأن أجدادها قد عرفوا الحب الحقيقي. ورغم أنني كنت أقول أيضاً أشياء كثيرة غير صحيحة فقط لأجعلها تبتهج، كانت تصدقني وتنخدع لي. وكانت تبكي بسهولة أمامي وتضحك بسهولة لا لشيء سوى لأنها تحبني. وكانت تنظر إلي بفرح دائماً، وتجلب الحلوى والشاي وتروح وتجيء وكأنما يخيل لها أنها تخدم الحب ذاته وليس أنا.

وكنت كلما ذهبتُ أجد على منضدتها ديواناً مختلفاً من مكتبة أجدادي، وأتذكر أنني وقفت يوماً أمام زجاج تلك المكتبة هاتفاً: لن أدعكم تخجلوا بي، أنا الحفيد الأخير...

وكنتُ كثيراً ما ألقاها خارجة من المدرسة فأتبعها متباعدين حتى نصل إلى البساتين، وذات يوم قرر أهلها أن يبيتا في المدينة عند

(١) تشايكوفسكي
(٢) بيتهوفن
(٣) فيفالدي

Telegram: electronic_library

خالتها، وأتذكر كان ثمة شاب وسيم جداً، يشيع الحب من وجهه، ينتظر على باب المدرسة، وسرعان ما خيل إلي أن المدرسة كلها تهيم به، واكتسحتني الغيرة، ولكن ما إن لمحتها حتى فوجئت بها وهي تسدد إصبعها نحوي قائلةً:

ـ هل أنتَ على العهدِ مقيم؟

وتبعتُها مردداً:

ـ إلى أين سنذهب؟

ـ إلى حيث يأخذنا الحب.

لم يكن قد بقي تينة واحدة على الأغصان، وكانت الأشجار قد اصفرت، والأوراق تتقاذفها الرياح فوق الأعشاب الخضراء، فصنعتُ لها تاجاً من اللبلاب الخريفي ووضعته على رأسها. وفجأةً... ساقية مترقرقة تعكس صفاء السماء مدت لسانها من بعيد، فهرعنا إليها راكضين في سهب أخضر مبتعدين حتى لم نعد ندري أين نحن، ونظرنا إلى صورنا في المياه... وإلى بهاء الغسق عند البحيرات البعيدة... فما إن هبط الليل على جمال روزالين، وانسحب ضوء القمر من شجرة إلى غصن، حتى بدت عينيها كأنما تُخزنان البرق، ولم أعرف سر ذلك الألق إن كان من قلبها الذي يشتعل، أم أن القمر يغسل تلك الحدقتين المحبوبتين بنور حالم... في ذلك المساء... وقرب الساقية... نظرتُ إلى الحبيبة السعيدة وقلت برعب:

ـ أخشى أن أكون قد تنكبتُ الدرب الصحيح... وأضعتُ لكِ فرصة العمر... عمرك الذي ربما من الأجدر أن يكون في سويسرا.

ولكنها فاجأتني مقهقهة:

ـ أنا منذ زمن بعيد أبحث بلهفة عمن أهبه عمري... منذ قبل أن أولد.

Telegram: electronic_library

ولم أدرك سر ضحكها... ألكي تبدد حزني؟ أهو بسبب حرية الروح التي تشعر بها؟ أم لأنني من السذاجة بحيث لم أفهم أن حبنا الكبير يساوي سويسرا بأكملها... ولم أقل شيئاً... فقد أرخيتُ ذراعي على كتفها ومضينا إلى مرتفع... حيث كان ثمةَ من أشعل ناراً... فجلسنا حولها... وهناك سألتها:

ـ ما الذي جعلك تؤمنين بي؟

ـ الوميض الإلهي الذي في عينيك.

كنت لا أنفك أعيد عليها ذلك السؤال، أو أردد «لماذا اخترتني من أجل باقة الياسمين؟». كنا نتكلم كثيراً لا لشيء سوى لأننا نحب بعضنا، وكنا نصمت كثيراً لا لشيء سوى لأننا نحب بعضنا. ولكن قصة المحطة العجيبة ظلت لغزاً من الألغاز لا تبوح به. كانت تنظر إلي بفرح دائماً، وتسير قرب قلبي، وتمسك يدي فجأة خشية أن أتعثر في الطرق الغريبة التي تعرفها هي فقط. ولأنه لم يكن في طريقنا أية فتيات كانت تغار علي من الأشجار عندما أقف طويلاً أتأمل كيف تعصف فيها الريح، أو من أوكار النحل، أو من الكروم البعيدة عندما يتولاني الذهول كيف تعانق السماء، وكتبتُ على شجرة اسمها وتحته اسمي، وبعدها خططنا اسمينا على كثير من الأغصان بمثابرة من يخشيا أن يموتا فجأةً ويصبح حبهما طي النسيان.

وعندما حلّ الشتاء أصبحنا نجد أنفسنا وحيدين، نحن والغيوم الكامدة وزهر البيلسان، وسعيدين مثل أطيار تلك المرتفعات، نسير ونسير ولكن إلى أين لم نكن ندري، كنا متروكين مثل حجارة صامتة فوق الأعشاب، وكنا نغني فجأة مثل جوقة من الغجر تولاها الجنون. كنا لا نتمنى شيئاً، غير منتظرين أي شيء، كنا نشعر أن أكثر من حبنا

Telegram: electronic_library

لا شيء. كنا نبطن شعوراً بأن بعدنا أبداً لن يحب اثنان بعضهما كما نحن الآن، ونضحك في سرنا دون أن يبوح أحد للآخر بذلك. كنا بلا ذات أو ذاتاً واحدة، نشرب من مياه الزمان ونقطف أوراقه، كنا نلمح السعادة قرب ظلال الأعشاب وأحياناً بعيدة في الأفق الحالم، كنا نحن والبرد والروابي وظلال الأشجار شيئاً واحداً، وكانت الطبيعة تهتف بنا: يا أيها المبتعدان ليس إلى أين... كيف ستعودان؟...

وكانت في كل وداع تلقي علي نظرة أسيانة كأنما تراني لآخر مرة، نظرة متواصلة يائسة كأنما تردد: تأملي عينيه وشفتيه وألوان ثيابه فقد لا ترينه مرة ثانية.

فمع اقتراب عيد الحب بدأ الثلج يتساقط ويقطع طريق المرتفعات، والصقيع يكتنف الوادي، والشال الأحمر يلف عنقي باستمرار، ويورِّدْ وجهي، يلون الفراق ويُشيع عذوبة غريبة أشبه بدفء الغرام على وجنتي، يشعرني بالحب يتسلل إلى قلبي طيلة الوقت الذي يُوشِح احمراره عنقي.

وفي ظل ذلك الشال انتشيت بذكرى زهرة الثلج روزالين، وكل الراحة التي بعثها في نفسي كنت أخالها منها. وفي الأمسيات الموسيقية كنت أطويه وأضعه بجانبي وأتكئ برأسي عليه مستمتعاً. بمعزوفة للحب، كانت كل الألحان تغدو معزوفات للحب، وخدر الصوف الأحمر يتغلغل في كل خلية من خلايا جسدي، وأصفق للعازفين... مرحى... مرحى... إن مقطوعاتكم أعادت ذكريات مملكة حبيبتي إلى عروقي.

ثم أخذ الفراق يغدو مرعباً... هناك وراء الجبال الثلجية... أصبحت روزالين مجرد حلم... كنا نهيم ببعضنا مثل فراشتين

Telegram: electronic_library

تنقضان بأقصى سرعة نحو قنديل، أو مثل روحين يوحدهما نور ملائكي يشع من محرق بعيد، إن هذا التحطم على الضوء كان أشد ما يُثير ذعري، ولكنني لم أكن أعي ذلك بدقة، كان يكتنفني الهلع كما يغمر الثلج سنديانة المنزل، وفي الوقت الذي أسميناها عروس الحديقة، كان قلبي مدفوناً في صقيع غامض من اللوعة والذعر.

الندفات تتساقط وراء النافذة وعلى البحر، ثلوج الوادي استحالت إلى جليد... وعيد الحب يقترب.

Telegram: electronic_library

- ٦ -

«أنتَ لا أحد إلى أن يحبكَ أحد».

سمعتُ هذه الأغنية في أمستردام، وكنت طيلة إقامتي في أوروبا أشعر أنني لا أحد، وأشعر أن المرة الوحيدة التي كنت فيها أحداً عندما كانت روزالين تحبني، وابتسامتها الأزلية تنير ظلمتي.

لقد وقعَتْ حياتي كلها في شرك بيتي «إ يليا أبو ماضي» الذين غنتهما فيروز:

هـات لـي عمري فأجعله طـائـراً فـي الأرض ينتقلُ
أنـا لَـولا البـعدُ أغنيةٌ تـأخـذ الدنـيا وترتحلُ

فأخذتُ أقطع أوروبا من شرقها إلى غربها من صقيعها السيبيري إلى دفء بحر المانش، ورغم انبلاج حضارة زاهية مشرقة أمامي لم تعرف الأرض لها مثيلاً منذ الإنسان الحجري، إلا أنها لم تصل بي إلى سعادة عميقة مثلما حدث في مراهقتي. وإنني إذ تلفحني الآن قدسية الأطلال، وأتذكر بيتي «إيليا أبو ماضي» وصفاء وجه فيروز في أغانيها القديمة، أشعر أن سحنتها من زمن مختلف، من عالم آخر غير ما آلت إليه عتمة وجوه الناس اليوم وأتوماتيكيتها. إن ذلك الهدوء النوراني الذي يلفح تعابيرها يعكس سلامها الداخلي وتصالحها مع نفسها. إن تلك الروح التي تحمل الشرارة المقدسة قد أضاءت

Telegram: electronic_library

كل مجموعة من أغانيها مرحلة من عتمة مراهقتي، ومنحتني عزاءً وانطلاقاً وفرحاً ومزيداً من الشهوة للحياة، فأشعر مع كل مجموعة آتية أنني أغدو جديداً مندفعاً في زورق الثالوث الأقدس: روزالين، فيروز، والطبيعة الحالمة، أطير في أحضانهم إلى الحب الذي يجعل من الثلاثة اقنوماً واحداً.

لقد كانت النهضة التي أعقبت زوال الاحتلال الفرنسي والبريطاني، والتفاؤل بالعلم والحب تخبو، ولكن وهجها كان لا يزال يلفح الوجوه، كانت دفتها تنحرف ولكننا كنا نعي ذلك ونقول عن أنفسنا أننا أمة متخلفة، أما الآن فقد انحدرنا إلى حد أننا أصبحنا نقول عن أنفسنا أننا متطورين.

في ذلك العهد، كان لي زميل في المدرسة، وكان يمقت أحدنا الآخر حتى يكاد السم يطفح على لسانينا، وفجأة اكتشفنا أن كلينا مغرم بفيروز حتى العبادة، وكما تشع الشمس في صباح شتائي على كل الناس بالدفء، هكذا أنارت أغانيها قلبينا فشعر كل منا بمحبة الآخر... وعندما عدت من الغربة صادفته في شارع، فارتسمت ابتسامة صافية على وجهينا، ولم نتكلم سوى عن الرحابنة، وكأنما كان هو أيضاً في غربة. وعندما غادرته شعرت أن حبنا سيدوم إلى الأبد، وأن السر وراء ذلك ليس سوى فرحنا العميق بفيروز. إن المحبة التي يشعلها قلب لتلهب نفوساً كثيرة وتوحي لأمة محبة الخير الإلهي... وقال لي:

ـ ألا زلت تفكر في روزالين؟

فأحنيت رأسي كمن تُثقل عليه الذكرى:

ـ أجل... جداً.

Telegram: electronic_library

فأخذ يغني:

ـ ذاكرٌ يا ترى
شعريَ الأشقرَ
والشريطَ وشال الحرير
يومَ خبئتَ في
سمعيَ المرهفِ
هم سرٍ كبوحِ العبير

وطفقتُ أغني معه وكأننا لا نزال مراهقين:

ذاكرٌ يا ترى
سورنا الأخضرَ
حيث كانت تفيء الطيور
يومها حبنا
كان في حينا...
قصة الوردِ لحن الزهور[1]

ثم قال لي: دعنا نفر، لقد كبر أولادي على هذا ولم تعد تشغلهم «أغاني الحب». وقلتُ في نفسي: «لقد كبروا لأنه لم يعد يشغلهم الحب[2]».

يا حبي الذي لا يراه أحد... ولكنه يملأ الدنيا... كنت أظن أن أحد رُسُل الضياء منحه لي وحدي، ولكني ما لبثت أن اكتشفت أن مرآة قلبي تعكس أنواره على سائر الدروب المعتمة، وبسببه ما نظرت إلى فتاة إلا وتركتُ على شفتيها ابتسامة... كنت أظن في أعمق

(١) فيروز
(٢) غابريل غارسيا ماركيز

Telegram: electronic_library

لحظات إشراقي عندما تنطق فيروز «يا حبيبي» تقصدني أنا «الحبيب الموعود» وتخاطبني وحدي، وكان ذلك يحيرني مرة بعد مرة. وما لبثت أن اكتشفت أن القلوب التي تحرس كنوز المحبة تلتقي كلها في محرق المطلق نفسه.

ولكن ماذا يفيد تلهفي لذلك الفردوس الضائع؟... ماذا يفيد غرام الصبية الحزينة إن انتصبَتْ أمامي في ظلال المساء كقصيدة من سراب. ما جدوى ذلك الوادي إن ارتحلت عنه طيور المحبة، ما جدوى قناطر القلعة إن هجرها قلبان يتبادلان الأسرار... ما جدوى أن يستيقظ بي صدى صوتها فيودي بي إلى الجنون؟ فأخاله منبعثاً من أطلال البيت وضوء القمر وأشباح الوادي كل ليلة:

رجعتَ تسأل عني ... من كل صوبٍ تغني
وعند أفياء بيتي ... تهدم وعداً وتبني
أنا انتهيتُ فماذا ... تريد عيناك مني[1]

لم أرم نفسي في أحضان العالم فقط بسبب شرك «إيليا أبو ماضي»، بل كنت أقول لنفسي «الرجل الحقيقي ليس له عنوان»[2] و«من يبني بيتاً يصبح باباً ونافذة»[3] و«من يملك منزلاً فإن الإله لن يحل ضيفاً عليه»[4]. وكنت أردد على نفسي: صبراً... وما أدراك أن المهجر لا يخبئ لك حباً أكبر. ولكن في الغربة يمكن للمرء أن يعيش مئة عام دون أن يخامره الشك بأنه ميت منذ زمن بعيد ومتفسخ،

(١) الرحابنة
(٢) ريتراي
(٣) بوذا: والقصد من يضيع غنى روحه في الغبار والخشب تتحول إلى مادة.
(٤) كازانتزاكيس: أي أن القوى العليا لن يستهويها شخص متبلد مترف يعيش في دعة

Telegram: electronic_library

وليس فيها الفراغ الذي يتيح له أن يحلل نفسه، فهو مشغول أبداً بالأعمال والعلاقات والصحة والفنون، وينبغي استقبال مختلف الناس، أو القيام بزيارات، أو الذهاب لسماع فلانة تعزف وعلان يغني، وهناك شخصيات مشهورة لا يجوز أن يفوته الاقتراب منها، ثم أن هناك الرياضة يجب أن يثابر عليها، ومناطق عليه اكتشافها، وتلفاز وصحف وكتب ومع هذا كله فالحياة فارغة فراغاً كلياً. ورغم أن «كل العناوين الإنسانية تُختصر بكلمة واحدة هي المحبة»[1] إلا أن الغريب أبداً ليس واجدها. لقد استهوتني عبارة شكسبير: «إذا لم تعجبك حياتك فغيرها»، فبدأت أغير مدينة تلوَ أخرى، حتى بات علي أن أغير التغيير نفسه، وأعود إلى مدار الحب القديم.

وإنني الآن إذ أحس أنني متحد مع الماضي، أنهل من ثمار السراب، شعرت بالسكينة فعلاً، ثم قادني ذلك الهدوء الروحاني إلى سعادة عليا، فأحسست أنني غارق في الخدر، خدر ذكرى أيام كان الزمان فيها غبطة شعرية تسمو بالنفس.

وإنني إذ أقف بعد خمسة وثلاثين عاماً على أطلال معبد مهدم مطمور بحثاً عن هيكل الحب القديم، لا أجد قنطرة واحدة أو شجرة أو حجر لم نكتب عليها اسمينا. وإنني إذ أطأ الآن على أرصفة الماضي، وأطل على أرض الخيال الأولى، متسائلاً: من كنت في تلك المراهقة؟ شبحها يتبعني عند كل خطوة، ويُقرِّعني: لماذا أنتَ بمفردك، ماذا جئت تفعل وحيداً، أين حبيبة تلك الأيام، هل جئت تفرح بدون حبك؟ ثم يخيل إلي وكأن تلك الأصوات تتناهى من الوادي والغيم والجبال حتى أكاد أجن... في تلك الأماكن المتاخمة

(١) رأفت يازجي.

Telegram: electronic_library

للغيب، نظرتُ إلى الوادي السحيق ولكنني لم أرَ سوى هاوية من العدم تفغر فاها، وصمت الموت يرين على الأعالي الموحشة: لقد فرحتَ حتى انتهى الفرح، وحزنت حتى انتهى الحزن، فماذا جئت تفعل وحيداً إذن؟... وخزَتْ فؤادي بشدة وحشة الأطلال وظلال الشجر، وتمنيت لو أكلم أحداً... فمِلْتُ إلى صياد قرب الساقية الأزلية، وقلت بلهفة خيال أضاع ظله:

ـ من فضلك هل مرت فتاة من هنا... فمها يميل إلى خدها كابتسامة؟!

فنظر إلي بارتياب، وعاد يحدق في الساقية... قائلاً:

ـ ما خطبك؟

ـ لقد خرجَتْ منذ الصباح... وإننا نبحث عنها.

فأجاب شاكاً في كلامي:

ـ لن يخطو قرب الساقية أحد في هذا الزمهرير!

فأخذتُ أتلفت يمنةً ويسرة:

ـ وأين عساها تكون؟

ـ أنت لست من القرية فمن أين أنت؟

فأردفت بقلق تدفعني أحلام اليقظة:

ـ هل تظنني أجدها في ذلك الدغل... فيما لو...

فقاطعني:

ـ ما اسمها... ومن أنت؟

ـ سأمضي إلى هناك... ولكن أحلفك بهذه الربوع إن رأيتها فقل لها أنني لا أزال أكتب اسمها على الأشجار...

Telegram: electronic_library

وأوليته ظهري... وقصدت الدغل، وأنا أبدو كحاج بلغ غايته، أتوسل الأوهام أن تعطي مظهر الحقيقة، متمنياً لو أصبح نبتة منفردة تراقب الوادي والهضاب والبساتين عسى تمر روزالين في أحد العصور...

وفجأة طار ورائي:

ـ إنك لست مجنوناً... ولست عاقلاً... فمن عساك تكون؟

وتواريت بين الأجمة:

ـ اسمع... أين أنت؟... إنني أعرف هذه الأشجار واحدة واحدة... وأعرف أن ثمة عاشقَين مرا من هنا...

فلم أنبس ببنت شفة... وكانت الأعشاب الصفراء تتكسر تحت قدميه.

ـ أين عساك اختفيت... انصت... هل أنت شبح... إن اسمها روزالين!

وظللت صامتاً، مثل خيال مرصود في الغابة لا خلاص له إلا بإكسير الماضي: خمسة وثلاثين عاماً قد مر يا روزالين وانتظاري لك لم يتغير، أتذكرين... أتذكرين كم كان الأطفال يتمنون لو يقطفوا السعادة عن وجهينا كما يقطفون عنبات البيلسان السوداء؟... كم ارتحلَتْ أقمار وسنوات على اكتشافي أن في مملكتك كل ضروب هيامي، وخارجها أسير سدىً على أرض من الأشواك. خمسة وثلاثين سنة قد مر يا روزالين على ذلك الصباح الضبابي الذي خامر فيه الهوى نفسي لأول مرة فتسألت:

ـ هل هو الحب؟...

Telegram: electronic_library

الزمن يرحل في الماضي... الأيام تنفق بين الأطلال... ذكرياتي تطوف فوق كل الأرصفة التي لثَمتْ حذاء حبيبتي... فوق كل البيوت التي زارتها... فوق كل الناس الذين أحبتهم، عسى إحدى الأصداء تعيد ثانية من الماضي فأسقط غارقاً فيها... والآن وإن كان قد ضاع كل شيء، فقد بقيَتْ لي بحيرة الذكرى، وطيف المحبة يرف فوق موجها، فإن سرتُ أتفيأ تحت أشجار ضفتها، ونظرت إلى الشمس، فإن شاطئ المحبة لا نهاية له سيغمرني بالحنين حتى آخر نبضة من نبضات حياتي.

Telegram: electronic_library

الفصل الثالث

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

- ١ -

ظلَّ الثلج يتساقط يوماً بعد يوم على حافلة الوادي، وكان السائق يهرع كل يوم ويدير المحرك لخمس دقائق وهي متوقفة ثم يعود إلى البيت ويلوذ بالمدفأة... وفوق الأعالي هطلت في تساقط بطيء ندف كبيرة ساطعة البياض، انهمرت دون رياح على التلال المنسية وتغلغلت في «عين الراهب»، التي لم يكن أحد من قاطنيها يعرف شيئاً عن عيد الحب... سوى فتاة واحدة اسمها «روزالين». ولكن ذلك العيد في تلك السنة خيم على القرية كلها كما لم يحدث في زمن من الأزمان.

فصباح القديس فالنتاين ذاك، تسلم عماد مذكرة تبليغ للالتحاق بالجندية، كآخر صدمات تلك القرية الحزينة، فأظلمت عيناه كما يظلم الوادي مبكراً في ذلك الصقيع الكالح... وطعن قلبه الأسى... واقترب من الموقد وأشعلها، وجلس ينظر إليها تحترق، متأملاً الندفات المتساقطة وراء الستائر، متذكراً حياته منذ البداية حتى النهاية... ومرت أمامه جنازة على الثلج فازداد كآبةً: لقد كان ابناً لطبيب بيطري ومهندسة زراعية، اضطرا إلى البقاء في ريف ندر فيه المتعلمين، أشعره أمام مطامحه التي يستحيل تحقيقها بين فلاحي الوادي وصياديه أنه كائن متناه في الصغر. وكان والده مثل عمه قد حول صراخه المنزل إلى مقلع حجارة، مما جعله يؤثر الوحدة،

Telegram: electronic_library

ويعكف على قراءة الأشعار كجده... ولم تكن مشاعر العظمة لديه منذ الصغر سوى لإخفاء عدم الطمأنينة المتأتية من الصراعات المستمرة في الأسرة. لقد أدى تسلط الأب لديه إلى الفشل في الدراسة، وأخذ ينتابه الشك في الناس كلهم، تلاحقه الأوهام أحياناً أن القرية كلها تتآمر عليه، ولقد وجد في روزالين في تلك الأيام ضالته، ولكن عدم القدرة على تبادل الثقة، وغيرة عميقة متأصلة ثابتة أحبطت كل شيء. صحيح أنه كان أحياناً يرى نفسه معها في حالة من المرح والانشراح، والإحساس بالرضا عن الذات، ولكنه كان فجأةً يتساءل:

ـ يا إلهي... أليس كل ذلك أوهام؟...

«أيتها القلوب الطاهرة، يا نجمات الأمل الموعودة... إلى من جرعتهم الآلهة إكسير الحب: ماذا سيبقى لي لو انطفأ مصباح حبها ؟» أخذ يكتب على عارض النافذة ويغني «يا عيون الأحبة انسيني... يا صورهم لا تبكيني لا تبكيني.». وعلى وقع الندفات التي تغمر الحقول وراء الزجاج، أخذ يتذكر كل وحول الماضي، وكل الأيام الحزينة التي لم تشرق على طموح واحد، يخامر ذهنه كم كان يجن جنونه كلما فطنَ أنني ازدريته قرب البحر، وكيف أخذت تسيطر عليه فكرة لا تبارحه أبداً منذ قرأ كتاب «صادق العظم»: أن قصائده أعظم من أشعار جميل، وأنني لست سوى «حجة الهلالي»، وأنني أجني عليه وأنوي إيذائه أو حتى أخطط لقتله، أخذ يُسقط كل مآسيه علي وحدي ويودي به كل ذلك إلى غل عميق، وفي نوبة حادة مفاجئة نظر إلى رماد مذكرة التبليغ في الموقد ودمدم:

ـ سأحول حبي إلى رماد.

والتمع في عينيه ذلك الشعاع العاصف الذي كان دائماً يحول

Telegram: electronic_library

وجهه إلى سمكة قرش... وخرج إلى الثلج، «يجب أن أسرق الدليل وأواجه به عمي وأدمر كل شيء»، ردد في نفسه وسار يبلبله شك عميق في كل شيء، وكانت الندفات الغزيرة تمحي آثاره أينما خطا، فتسلل إلى الفناء الذي تحت نافذتها، وهي لا تزال في المدرسة، وقفز خلسةً إلى الشجرة التي رمى منها الوردتين إلى السرير، ولكن النافذة استعصت عليه، ومر بضعة أفراد قرب الزريبة، وخشي أن يُلفت معطفه انتباههم وقد بدا كتلة سوداء بين الأغصان المثلوجة العارية، فعاد إلى البيت وهو يغلي وجلب مطرقة وإزميلاً، وسطعت الشمس فجأةً وسط الندفات المتساقطة ثم غابت من جديد. وولج الغرفة هلِعاً وهو يعلم أن الوالدين لابد أن يعودا فجأةً من الجنازة، وأخذ يعبث بكل شيء وهو لا يدري عن ماذا يفتش، وفجأةً وجد رسائلي، فعاد بسرعة قافزاً من جديد إلى الشجرة، وركض إلى المنزل يلوح وجهه الصقيع، وجلس قرب الموقد. وأخذ يقرأ: «ها قد مرت دهور مذ أقلعَتْ أشرعتكِ في بحر حبي... أيتها المولودة متوقدة وحزينة، إن الملائكة ذاتها لتذرف الدمع إن رأت ابتسامتك... يا كاهنة الحب صلي لنا شعائر الهوى كل ليلة، يا شاعرة النسيان أسدلي ضبابك على أشباح ماضينا»... وفضَّ رسائل كثيرة مطرزة بالدموع كنت أرسلتها الخريف الماضي متلهفاً لمعرفة لغز المحطة الغريبة. وكأنما رق قلب الشاعر، وتحول عجز ردود الفعل السادية لديه إلى نزعة مازوكية في إيذاء كيانه، فقرر أن يطعن نفسه بسطوري وكلماتي، فأخذ ينسخها مرة تلو مرة، شاعراً بلذة غامرة في جَلْدِ نفسه بكلمات حبي الكبير، فما إن حل المساء حتى تجمعتْ لديه عشرات النسخ، واختلطت مع رسائلي الأصلية فلم يعد يميز بينها، وفجأةً، ومن جديد... انفجر غاضباً، وعاد إليه الشعور السادي، وكان الليل قد

Telegram: electronic_library

هبط على القرية، وسادت سكينة باردة حتى بالإمكان سماع صوت الندفات وهي ترتطم بالثلج المتكدس على البيوت والحظائر، فخرج من جديد يعضه البرد، وقدماه تغوصان في ثلج الليل، وطفق يوزع صفحات الغرام على البيوت، من تحت الأبواب المغلقة، شاعراً بالاستخفاف بالآخرين الذين طالما أعتقد أنهم يحاولون تجريح صورته... وهو يهذي باضطهادي له، تتسلط عليه فكرة أنه ضحيتي، مضافاً إليها كابوس من التوهمات... كان الصقيع يخنق خوار الأبقار وصياح الديكة وتغريد الأطيار، والثلج يهطل صامتاً خلال الهواء المظلم، حين دنا من منزل سائق الحافلة، وفجأةً مزق صياح كلب عتمة الصقيع، فركض قاطعاً القرية من أقصاها إلى أقصاها يلهث في الظلمة، حتى إذا غدا قرب منزل روزالين... واتكأ على أخشاب الزريبة... ونظر إلى الشرفة، دمدم في أسى:

ـ أيتها الجوهرة التي لم يعثر عليها أحد قبلي... إلى متى سيظل الشبان يتنهدون كلما مروا تحت نافذتك؟!...

وكان نباح الكلب لا يزال يقصف وجه الليل، فهرع إلى الموقد يرتجف، ويتخيل أوضاعاً يتفوق فيها علي ويسحقني، معطياً لكماله أهمية مطلقة... بينما كان أهالي القرية يخرجون ويضيؤون مصابيحهم على الإسطبلات والآبار وقد راعهم أن يجرح العواء صمت الليل بهذه الضراوة، فلا يعثرون سوى على رسائلي عند العتبات، فيهرعون إلى الداخل ويقرأون والثلج يغازل زجاج النوافذ بخفوت رومانسي، وقد شغفهم أن يكون ثمة عيد للحب وأن القديس فالنتالين يجمع القلوب النقية صباح ذلك اليوم، ويبارك الأرواح المشغوفة بالحنين... وأمضوا تلك الليلة عند بعضهم بعضاً مستغربين ساهرين قارئين: «لقد هبت رياح عاتية الأسبوع الماضي،

Telegram: electronic_library

وتساقط مطر غزير، فوضعت الشال الأحمر، فقالوا لي أن عيد الحب لم يأت بعد، ولكن الحنين الذي كان يشيع من خيوطه ويلفح عنقي يجعلني أشعر وكأنني أتجول على كوكب تغشى فيه روح المحبة مثل الضباب كل الأمكنة، فأبتسم في سري، وأغدو رقيقاً حالماً وأنا أرنو بهيام إلى الناس والبحر وأوراق الخريف».

ورغم أن اسمها أخذ يدور في كل أرجاء القرية بالحكايا، إلا أن أحد لم يدر من تكون روزالين، فقد ظهرت في القرية التي نام أهلها مندهشين باسم روز، ونام عذراواتها وشبانها حالمين بأن القديس فالنتاين يجوب الروابي والهضاب... يقطع قرى الوادي من ذرى الجبال إلى البحيرات السعيدة بعربة من نار، ولابد أنه سيعثر ذات يوم على «عين الراهب» ويحولها إلى قرية طاهرة.

وفي الصباح ندم عماد ندماً شديداً، فحزم حقيبته وودع والديه، وامتطى بغلاً هبط به المنحدرات المثلوجة حتى مفرق طرطوس، حيث استقل الحافلة إلى مركز الخدمة العسكرية... ولكن ما إن مضى أسبوعان حتى أعفي وعاد إلى القرية وفي يده تقرير من الطبيب حول إصابته «بالذهان الهذائي». [1]

(١) بعد خمسة وثلاثون عاماً سأزور والدي في دار المسنين فأفاجئ به هناك، وكان مرضه قد تفاقم ووالديه قد توفيا، وفي جيبه زجاجة الدموع.

Telegram: electronic_library

- ٢ -

وتنهمر الندفات وراء نافذتي، وتنهمر الأقمار والأيام، يبعث الثلج في قلبي خفقاً عذباً ويثير أعمق أسرار قلبي. لم أكن قلقاً من أن تنسى حبي ولكنني أيضاً لم أكن أنام من حبي. لزمتُ حنين المدفأة أحلم وأحضر الواجبات المدرسية، وأنظر إلى الندفات المتساقطة وراء الزجاج، وأتنهد وأستمع إلى فيروز، وأغفو وأستيقظ، وأتخيل الملائكة الثلجية ترف فوق الوادي كطيور الجنة، كنت أرى العالم من خلال طيف حبها كما أرى كل شيء عبر نظارتي، فتتسرب إلى قلبي تلك السعادة التي يبدو فيها كل شيء مجرد حلم.

ممالك الطيور، وأبراج الحمام، والسنديانة، تغطت كلها أمام ناظري، وطمر الثلج صخور البحر، وغمر القوارب وكسا المنارة، وعيد الحب يقترب...

وكل ما فعلتُهُ أن كتبتُ اسمها على الثلج، ولم أهيء لها أية هدية، وكنت أعلم أنه لن يخطر لها أن تفعل ذلك، لقد مر العيد دون أن أحس بأي تقديس أو وقع له، لقد كنت أشعر أنني أنا نجمة الحب فوق العدم والسراب، أنا هيام الزمان المتواصل، وقد رست سفينتي إلى الخلاص منذ قديم الأزل، أنا راهب الحب الذي يوقد المجامر والشموع والبخور ليل نهار منذ غابر الأزمان في محفل الحب، فهل دمي بحاجة إلى عيد؟!

Telegram: electronic_library

في عيد الحب ذاك أدركت مغزى عبارة جبران «المحبة مكتفية بالمحبة»، لم أكن بحاجة إلى ورود بنات خالاتي وحفلاتهن، وقد أتين مسرفات في المرح حتى بدت أقوالهن غير متماسكة، فيما طفتُ أقوالهن غير متماسكة، فيما طفتُ أنا بحذاء أشجار الياسمين أشم عبيرها زهرة تلو زهرة حتى أحسست أنني أكاد أسقط في غيبوبة من العطور، شبيهة بالتي تقودني إليها ذكرى روزالين، التي كنت أعلم أنها ليست منفية أبداً عن يوم القديس فالنتاين وإنما يرقص في قلبها.

ورغم أنه لم يكن أحد في المدينة قد عرف عيد الحب أو سمع عنه في ذلك العهد عدا نخبة من مثقفيها وفنانيها، إلا أن كل من يقصدون دار الألحان كانوا مغرمين به، والحفل الوحيد الذي جرى في المدينة كلها، كان هناك وعلى وقع الثلج الذي يدفن كل شيء.

ورغم أن أحداً في دار الألحان نفسها لم يكن يدري أي شيء عن القديس فالنتاين، إلا أنه في ذلك العيد الذي يأتي فيه كل طير بحثاً عن وليفٍ له كان الحب يولد في دواخلهم.

وتفاديت دعوة بنات خالاتي إلى «فالس المحبة» في تلك الدار، وقد جئن يطمعن أن يطرن إلى أعلى طابق للحب ولكنهن غير قادرات على ألا يكنَّ مبتذلات، لقد كن يسمعن تحت جلدي نبضات دمي دون أن يفهمن ما بي، لقد كن يحدسن أن يكون الغرام قد أوقد ناره في ضلوعي، ولكن صمتي كان يعكر إدراكهن، لم يكنَّ يفهمن أبداً أنني أغفلت عيد الحب كما يرمي التلميذ كتبه عندما ينجح في صفه.

وفي دار الألحان أخذن يرقصن تحت الثلج المنهمر، وقد بدون في مشهد رومانسي يخطف القلب فعلاً... وكانت الميسورات يحرصن أن يبقين عذراوات، وهكذا كان بإمكانهن أن يرقصن

Telegram: electronic_library

ويضحكن دون ضغط، ولكن ليس دون رقابة، فقد كن يعرفن «قاعدة اللعب»، ومع ذلك فإن أشياء كثيرة كانت تحدث وراء الكواليس...

ومع ذلك بدا لي الموكب السعيد تحت ندفات الثلج في عيد الحب ذاك أمل المدينة كلها، إن تلامذة الغرام هؤلاء أجنحة الحرية الوحيدة، طيور جزيرة الهوى الموعودة، وسط مياه متلاطمة من التزمت.

ولم يكن هناك أي بائع لهدايا الحب، وكل ما أتذكره مخزن للسكاكر في مركز المدينة، وعندما قصدته وجدته على الباب ينفخ في قبضتيه حتى لا تتجمدا، وعندما سألته:

ـ هل لديك هدايا عيد الحب ؟

أخذ يتلفت يمنةً ويسرة كأنه خجل من شيء ما، ثم أشار إلى صندوق في زاوية المخزن:

ـ ابحث به عما تشاء!

وأخذت أنقب به... ثم اخترت شمعة حمراء حزينة... لم يكن هناك أي تهافت على الهدايا، ومع ذلك فإن المحبين الذين خبرتهم في ذلك الزمان كانوا أكثر التصاقاً بالجوهر.

ومضيت إلى محطة الحافلات... وعلى رصيف المدى الحالم للبحر، أخذت أتذكر نظرات الحب الأولى... وخفقات الموج على رصيف المدرسة... وقلت في نفسي: لابد أن الثلوج على الروابي، وأشجار التين قد ابيضت... متى يذوب الجليد عن المحاور المكسوة بالصقيع ويعود زماننا إلى جريانه...؟ مملكة حبيبتي من ثلج الآن، وتلال الحب يغشاها الصقيع... ورغم أن الثلج قد انقطع بعد مدة عن البحر إلا أن الوادي ظل مغموراً، وكنت أذهب كل أسبوع إلى محطة

Telegram: electronic_library

الحافلات، فيخبرونني أن الطريق مفتوح حتى مفرق طرطوس، وبعد ذلك علي أن امتطي البغال، وأترجل عنها عند المرتفعات.

ومن جديد لم يبق من عزاء سوى الجلوس تحت السنديانة في روض الثلج ذاك، وإعادة قراءة الرسائل تحت الندفات المتساقطة على السطور والكلمات، وكم أدهشني معانٍ عميقة كلما أعدتها أحسست أنني أقرأها لأول مرة: «لن أحدثكَ عن عذابي، فلم يبق من تلك الأيام الهاربة كسفر العصافير سوى حبكَ»... «إن حبكَ يفرحني لحد أظن معه أن لدي جناحان وأن الطيران ليس غريباً عني»... «وأفتح النافذة وأُقنعُ نفسي أنك لابد ستمر...، فأنظر إلى الطريق والمطر والأرصفة المبللة فرحة كأنما طيفك يكتنف المكان»... «سأقطف لكَ ما تبقى من تين، عن الشجيرات المنسية في أعمق أعماق بساتين الخريف»... «لم يعد في المحطة سوى الفوانيسُ خافتةً، وعناد المتسولين، وخريف يمطر رذاذاً أسود على السكك، وفتاة أضاعت حبيبها، منسية كصندوق لجمع الأحزان»...

وتبلل خدي بدمع حار، ورددت في نفسي:

ـ أنا أبكي... إذن أنا أحب...

وداع الثلوج... وآخر أيام الندفات... كما أتذكر تجلى في صباح واحد... استيقظت فيه والرعد يقصف البحر، والعاصفة تجتاح الأمواج، والغيم يجري، وفجأةً لم يبق أي أثر للجليد، كان المطر يسيل تحت البرق ويذيب آخر الندف المتوارية في الأزقة وتحت الشرفات، وشعرت بتفاؤل، وتنهدت بملء صدري وأنا أرنو إلى قوس قزح معلق فوق المياه، ثم سطعت الشمس لعدة أيام، وعاد المطر ينهمر.

Telegram: electronic_library

وفجأةً قرعت رسولة المحبة الباب، وكان مجرد ظهورها أمامي كافياً أن ينسيني نفسي، واكتسى وجهي بالاحمرار، وأحسست كأن تياراً من العذاب كان يجري في داخلي قد توقف... ولكن وجهها المَوتور جعل ابتسامة الفرح تحتضر على شفتي، وقالت:

ـ لقد أشاع شخص رسائلك على القرية كلها!

ـ رسائلي!

ـ أجل، لقد سرقها ونسخها ووزعها على جميع البيوت.

ـ من؟!

ـ لا أعلم... تقول روزالين انه خط عماد... وأنا قرأت رسائلك مع أهلي... إنك تكتب وكأن حبرك هو دمك... ولكن للأسف لقد انقلبت الأمور...

ـ هل الحافلات تعمل الآن ؟

ـ أجل، لم يبق من الثلج سوى ما يعلو القبور، التي لم يقصدها أحد منذ وضع الشتاء قدمه هناك... ولكن لا تذهب أبداً... أبداً.

ـ ألم تعطكِ رسالة؟

ـ لقد هرعتُ بمفردي.

ـ وما حالها... هل يغشى الحزن وجهها؟

فتلعثمَتْ:

ـ ستعلم فيما بعد... وداعاً

وأدارت ظهرها.

ـ ستتركينني بحيرة.

ـ المهم... ألا تذهب.

Telegram: electronic_library

وهبطتْ الدرج مسرعة وكأنما تنجو من مزيد من الكلام، فمضيت ورائها إلى صحن الدرج وقلت لها عبر الدرجات:

ـ قولي لها أنني كنت مكرهٌ على الغياب بأمر من الثلج.

وتابعتها من النافذة... وهي تعبر بحذاء السنديانة وتمضي إلى الجامعة مَوتورة مَوتورة...

Telegram: electronic_library

ـ ٣ ـ

كما تتساقط أوراق البيلسان في الشتاء، هكذا كتبَتْ النجوم أن تتساقط أوراق حبنا.

وداعاً يا أناشيد الغرام... وداعاً... يا ليتني أولد من جديد فأملأ الحياة محبة وانطلاق وفرح...

لقد جاءت المفاجأة الأكبر بعد أسبوعين، حين قرع المقامر باب بيتنا ولم يكن ثمة أحد، فترك لي قصاصة تحت الباب وفضضناها ونحن نرتجف:

«احضر إلينا فوراً... إن روزالين بحاجة إليك».

العنوان: وادي النضارة ـ قرية عين الرهب ـ جانب المخبز.

وقامت أمي إلى سماعة الهاتف، وأخبرَتْ أبي في تدمرين بكل حكاية الرسائل، فقال أن هذه القصاصة لا تتناسب مع طبيعة المقامر النارية، ولن تنطلي علينا، وأمرنا أن ننتقل إلى بيت جدتي...

وهكذا أخرجت أمي الثياب من الخزائن والكتب المدرسية والطعام وأسنانها تصطك، خشية أن يعود المقامر مخموراً، وكانت أختي تحزم كل شيء، يلفح وجهها توتر غامض، وكانت نفسي تردد: ها أنا أرحل من جديد... ولكن لِمَ... ما الذي فعلته؟...

وأخذ أبي يغلي منتظراً يوم الجمعة ليعود، وكان شاعر «هوود»

Telegram: electronic_library

وقد غدا صديقه الوحيد، قد أقنعه بأن عينيَّ ستظلان تحترقان حتى يوم الزواج، وأن هذا البريق الأزلي ليس سوى اشتعال كوكب صغير تحت وهج نجم ساطع، وأنني سوف أعكس هذا الضياء على كل البنات اللواتي أصادفهن كما يفعل القمر بنور الشمس، وقال له أن تلك الشمس التي لا تخمد هي روزالين، وأن نار حبها سيجعل عينيه مدرسة للحب تُلهم عشرات الفتيات فن الهوى.

كانت جدتي تقطن بمفردها في دار كبيرة دمشقية الطراز، في حي قديم منعت دائرة الآثار هدمه كله، وكان خالي بعد أن تزوج، قد ألمَتْ به ضائقة، ميالاً جداً إلى فكرة أن لابد في هذا البيت من كنز... وكان يَحضر كل يوم جمعة ويدقدق ويفكر ويسبر، ويقيس أبعاد القناطر، ودائرة البحرة والمسافة بينها وبين الدالية والبئر، وكان يردد أن كل شيء بحاجة إلى حفر. وكان في اليوم الذي وصلنا فيه قد جلب أربعة عمال للحفر في أربعة أماكن مختلفة موهماً إياهم أنه بصدد زراعة الزهور، وفوجئ بنا والحقائب بين أيدينا حتى كاد يظن للوهلة الأولى أن أخته قد طُلقت.

وأرجئ الحفر، وصرف عماله، ولمحته يجلس أمام جدتي يغلي، فقالت:

ـ لن يطول بهم المقام... لابد أنهم عائدون.

وعندما وصل والدي وجدنا نلوذ في غرفة واحدة باردة لأن باقي الحجرات كانت سقوفها تدلف، ورغم أن المدفأة كانت تعمل منذ الصباح كانت عاجزة عن تسخين الهواء لغرفة بهذا الحجم، ومع ذلك ما إن فتح الباب حتى داخله الاطمئنان، وكأننا في منفى بعيد عن أي شر، وكنت أنا منزوٍ في ركن وعيناي متعلقتان بنور الغيم الواهن المتسرب من النافذة كآخر أمل من النهار الآفل، كانت السحب تجري

Telegram: electronic_library

والمطر يرذ، وعيناي تلتمعان كمياه مترقرقة تحت ضوء القمر، كان الحب يسكب مطراً أو المطر يقطر حباً، كان الزمن يجري وتجري معه ذكرياتي وأحلامي ودموعي، ومن أقصى الغيوم إلى أقصاها كان الرعد يجري، وأنا أرتجف متكوراً في زاوية الحجرة، ونور النافذة الشاحب يوهن عروقي، وفجأةً انتصب والدي أمامنا وقال:

ـ هو ذا الكباب الذي وعدتكم به.

وتحلقنا نأكل على الأرض، كما كان يفعل جدي وجدتي في غابر الأزمان، وأخذ أبي يشرب كثيراً، ولكن هذه المرة لكي ينسى، كان يرى وضع العائلة المزري وكان يريد أن ينسى، وكان يلقي عليّ نظرة تلو نظرة وتتعمق في ذهنه أفكار شاعر «هوود»: هاهو الفتى لا يأكل إلا قليلاً ثم ينزوي من جديد إلى ركنه مفضلاً أن تسرح عيناه عبر الزجاج ليس إلى أين! هل حقاً خلاصه في هذا السن في الزواج؟!...

وغرق أبي في النوم، وسط حجرة تشارك حبات المطر الثرثرة، وظللت منقوعاً في صمتي، صمت من نوم ودوار، وظلَّ الكون أمامي يجري، كان كل شيء يتحول إلى دخان ويتلاشى، أمام السؤال الكبير: تُرى ماذا حل بروزالين...؟ ونور النافذة الكابي يزداد حزناً قبل أن ينتحر النهار.

وفي الصباح أشرقت الشمس قبل أن يرحل أبي... كانت الحجارة تتبخر، وشملت السماء والأرض سكينة وعذوبة مليئتان بالصمت العميق... وعلى مائدة الفطور، أومئ إلي:

ـ أنت لا تأكل جيداً...

فقلت:

Telegram: electronic_library

ـ واحرَّ قلبي يا أبي... واحرَّ قلبي

فهز رأسه قائلاً:

عـاجَ الشـقيُ علـى رسـم يسـائلهُ
وعـدتُ أسـألُ عـن خمـارةِ البلـدِ [1]

وأردف:

ـ هل تعرف معنى هذا البيت؟

وشرح لي معناه ورحلْ...

وأعدتُ قراءة القصاصة: «احضر إلينا فوراً... إن روزالين بحاجة إليك»... وأخذ عقلي ينشط: هل يمكن أن تكون المكيدة مكشوفة إلى هذا الحد؟... إن كان يريد شراً بي هل يضع قصاصة تحت الباب ثم يختفي أم ينتظر حتى أعود؟... هل كان مخموراً؟... ثمة لغز محير... وتناهى إلي صوت مطرقة، ورنوت من النافذة فوجدت خالي يزيل لوحة رخامية قديمة كُتب عليها: «يا رب بارك هذا المكان» ليكتشف ماذا ورائها. وعدت أتساءل: هل ثمة من يتربص بي فعلاً؟ هل عماد يصب الزيت على النار؟ هل جاء أبوها من القرية فقط ليضع قصاصة تحت الباب ويعود؟ ومضيت إلى خالي ووقفت قربه لأن الطَرق كان يريح جمجمتي ويُقطِّعْ دوامة أفكاري. ومع ذلك ظل السؤال الكبير: «تُرى ماذا حلَّ بروزالين» يُلح علي. وتساقط الرخام قطعة قطعة على الأرض، ولم يكن ثمة شيء خلفها، وأذكر كيف عكف خالي على حجر دائري يختلف عن الحجارة المربعة التي ترصف المكان قرب قفص الدجاج وأخذ يقلعه، وجلست قربه

(١) أبو نواس.

Telegram: electronic_library

وسؤال كبير يدور في ذهني: ترى... هل قرع المقامر بابنا مرة ثانية؟ وأعدت قراءة القصاصة وعدت أدمدم: لا يمكن أن تكون المكيدة واضحة إلى هذه الدرجة مطلقاً، هل هو من الغباء بحيث ينتظر أن أذهب وأقرع بابه ؟ ولكن يا إلهي... ماذا لو كتبها وهو مخمور ؟ وفجأةً تذكرت عبارة رسولة المحبة: «المهم ألا تأتي أبداً»... آه... ولكن لماذا؟... ماذا لو التقينا سراً كالعادة؟... لماذا لا تريديني أن التقي بروزالين؟ ولم تجلب معها سوى رسالة من الصمت وفرَّت من كل سؤال... لا يمكن أن أبقى على هذا النحو... فقد أُصاب بلوثة... ونظرت إلى الشمس المشرقة فوق الأرض المبتلة، ونظر إلي خالي ذاهلاً وقال:

ـ هل أنت تجلس قربي... أم أنك مجرد ضباب؟

ورنوتِ إلى الحجر المقلوع وقلت:

ـ أجل... هل لديك فكرة أخرى... في مكان آخر؟

وتبعته وهو يحمل مطرقة ضخمة وإزميل ويداه مليئتان بالوحل، وقد قررت الرحيل: سأكتشف كل شيء بنفسي، من سيعرفني؟... من سيراني؟ والحقيقة ـ كما أتذكر ـ لم يكن وراء قراري هذا سوى دافع واحد: آن الآوان لكي أراها.

ولكن والدتي صاحت:

ـ إنك تذهب إلى المصيدة بقدميك... سأتصل حالاً بتدمرين.

ولم أحر جواباً فأكملَتْ:

ـ كنت أعلم أنك إذ تبعتها لن تقودك قدميها سوى إلى الجحيم.

وامتلأت نفسي مرارة، وصفقت الباب هارباً، دون أن أبوح بكلمة.

Telegram: electronic_library

واستوقفتني سنديانة المنزل، فالتفت إليها ودمدمت:

ـ إنني إن أفارقكِ... فإنني ذاهب إلى قدري.

وكأنما كنت أريد أن أقول ذلك لأمي، فتلفظتُ به إلى الشجرة.

إننا كثيراً ما نعتذر للآخرين بضمائرنا عندما نشعر أنه يستعصي عليهم فهمنا، ومع ذلك كان جرس إنذار يدوي على أوتار وعيٍّ بأن شيئاً ما سيحدث.

Telegram: electronic_library

- ٤ -

وانتشت حواسي منذ وصولي إلى أرض الإلهام... وفقدت كل إحساس بالزمن...«من هنا يبتدئ كل خير» رددت في نفسي، وأحاطت بي ظلال رهيفة من الرقة والحبور، وتجولَتْ نظراتي من قلعة إلى برج إلى قصر إلى دير متسائلاً كيف يمكن أن يكون الفردوس إن هو أكثر من ذلك؟

وانحدرتُ حذراً باتجاه المنزل متسائلاً: «تُرى ماذا ينتظرني؟ هل تخليت عن الحكمة بمجيئي؟ مهما كانت ظنوني فإني لست سوى ماضٍ إلى محفل الحب. ولم أكن أحدس يومها أن جحيماً من السم ينتظرني... كانت ريح نيسان تُموج زهور الروابي وجبال لبنان لا تزال تظهر مكسوة القمم، وكان موسم الأحزان قد ابتدأ... ورويداً رويداً أخذت اقترب من مملكة الموتى.

وفجأةً وكما تفعل عاصفة على جزيرة هادئة، أو كما يموج سطح بحيرة إن ألقيت به صخرة، هكذا اضطربت روحي عندما تناهى إلي نواح قروي متقطع آتٍ من فناء الزهور تحت نافذتها، وكان ثمة عجائز يذرفون الدموع وقد جلسوا تحت الشجرة يتهامسون في تنهد عميق. «رفقاً بي أيها الحزن شبحاً كنت أم حقيقة» أخذت تدمدم نفسي وقد غشى نظري ظلمات مريرة، لقد كانت أمها لا تفعل شيئاً

Telegram: electronic_library

سوى بكاء متواصل وكأن تلك النفس المضناة قد اصطكت أسنانها طوال الليل، أشارت إلي من بعيد أن أصعد، عندها تأكدت أن ثمة فجيعة قد أَلَمَّتْ، وأخذت عظامي تصرخ وأنا أندفع إلى حجرتها... وكانت كلما قدمَتْ امرأة تلقي نظرة على سرير العذاب ثم تجلس في الفناء تندب، وكان الوحيد الذي لم يتمكنوا من إخراجه راكع قرب السرير يلطم خديه ويهذي وكان اسمه عماد.

وتولتني قشعريرة كالتي تصيب من يتجه إلى حتفه، ولم تبق قطرة دم واحدة في أوصالي لم ترتعد... وآسفاه كم كانت واهنة خَدِرة ممددة كأنها في عالم آخر... وكانت تنهيدة بين حين وآخر تجعل الهواء يرتجف، وكان الشعر قد شطر وجهها نصفين، محاذياً منتصف الجبهة، سائراً فوق الأنف ومغطياً منتصف الشفتين والذقن. ومع ذلك فقد رأيت أن نصف وجهها لا يزال يلقي بسهم المحبة قلب من يرنو إليها. وكان هو يصلي ويرتل ويتلو رافع الرأس إليها تارةً وفوق ركبتيه تارةً أخرى، وخيل إلي أنه لا ينتحب إلا ليلفت الأنظار وأن الجميع يدركون هشاشة نفسه، وعندما رآني قام بخبث وأزاح شعرها الأسود وأراني خدها الأيسر المشوه والمتغضن بصورة رهيبة، ليس إلا ليجعلها تفقد حظوتها في نفسي، ورغم أنني لم أتأثر فقد كان يكفيني أنها كائنة أمامي تتنفس، إلا أنه لعلمي بسريرته جنَّ جنوني... ثُم اختلطت المشاعر في صدري، فأخذت أبكي، وجثوت على ركبتي قربه وأخذنا نحن الاثنين ننشج ونندب.

من ذا الذي بمنثور الكلام يستطيع أن يصف أميرتي الشاحبة كآخر نجوم نوار، أي قلب أكثر نرجسية من أن لا يتصدع لمرأى ذلك الجمال الباكي؟ إن مجرد تصوري أن روزالين قاست في غيابي كل ذلك وهي تأسى وتصعد الزفرات أسال دموعي غزيرةً مع ألد

Telegram: electronic_library

أعدائي... من قدر يخون صباي ويطعن مراهقتي بألم لا تحتمله سني المبكرة تلك.

وببكائنا أمام الشيء نفسه أحسسنا أننا أخوة لأول مرة، ورغم أن الذهان الهذائي لم يبارحه ودموعه تنسكب، شعرت أنه لم يبق لي عزاء إلا هو، ولمجرد أن قلبه أدرك ما به وشفتيه تلفظت بكلمة «الحب» كان ذلك لمأثرة مهما كانت الاختلالات الروحية التي يعاني منها عميقة، وقلت في سري: طوبى لك لقد أحببتَ.

لم تكن تلك الابتسامة التي تطبعها بفتنة غريبة، وذلك الميل الساحر لشفتيها سوى إلتهاب طفيف في عصب الوجه أزهر الحسد في قلوب جميع من تمنين أن يكنَّ مثلها من صديقاتها... ولكن عصب الوجه السابع أصيب بإلتهاب غامض فجأةً، والخد الذي تأثر بالشلل ارتخى وتشوه. وأخبرني أيضاً أن طبيب من مرمريتا أجرى لها عملية يائسة في الصباح وأنها لن تقوى على النهوض قبل أسبوع، سيتلو لها راكعاً سبع صلوات للحب خلاله.

وكانت العبارات تنفجر في رأسي انفجاراً حتى وددت لو أتقيأ قلبي... وفجأةً رأيته يُخرج قارورة بحجم علبة كبريت ويجمع فيها الدمع المنسكب من عينيه ثم يخفيها، ولم أتمالك نفسي عن ضمه بين ذراعي وتقبيله ولكنه دفعني بشدة وغادر الحجرة وبقيت وحدي.

لم يكن عقلي يصدق: هل هذا الجحيم كله حلم أم فلم... ؟ لم يكن شيئاً قد تغير في الحجرة سوى الشموع المضاءة في الأركان، وعبارة كَتَبْتُها على الحائط: «لقد توارى النجم الذي يحرسني عندما غاب وجهك عني». وقمت إلى الحاكي ووضعت أسطوانة «شهرزاد» وأخذت أديرها بإبهامي وكأنني أود أن تدور وتدور وتعيد الماضي.

Telegram: electronic_library

وانسحبت نظراتي من رأسها إلى قدميها من جديد، وقلت في نفسي إنها بخير، إنها بقلبي، إنها رائعة، وكما أذكر كانت روحي تهتف: إنها فتاة تدعى الحب. وانحنيت وقبلت يدها المسترخية، وكأن ذلك يمكن أن يبعثها فجأةً، ولكن الهلال الحزين ظلَّ في غياهب الصمت.

ورغم تدحرج دموع كبيرة من عينيَّ، ظلت مقلتيَّ مثبتتين عليها، وكأنما لإرواء ظمئهما الذي دام طيلة أشهر الثلج والمطر، وعدت وجثيت على الأرض إلى جانب السرير، وبدا كيس الأمصال معلق فوقها، وفمها لا يزال يميل إلى الجهة السليمة، وشعرت بعد برهة بالاختناق، فنهضت وفتحت النافذة ولكن الريح التي دخلت أطفئت شموع الغرفة... ورنوت إلى العجائز الذين غلبهم الأسى، وعادت أصوات الندب تطرق أسماعي، وكأن الألم لم يفعل سوى أن زاد ألسنتهم انطلاقاً ونواحاً... وكان ثمة طفلة غريرة تلهو بين الكراسي والدموع... ثم ساد صمت منغص وكأنما تبدى لهن أن الكلمات الحزينة لا تجدي. ورغم أنه لم يخيل لي أن شبح الموت يخيم إلا أن الجميع كانوا ممتقعين لهول ما عانته وكأن الردى يبسط ظلاله فوقهم... ومر قطيع من الماعز وخزَتْ رائحته المكان ثم توارى...

«لقد تسلقنا مرتفع الحب إلى قمته وآن الأوان أن نهبط» رددت في نفسي، وأنا أغادر الحجرة، وتراءى لي المزار البعيد حالما غدوت في الأسفل، ومررت بالموكب البشع للعجائز ووعيت لأول مرة أن العالم ليس حالة من حالات الروح، كان للناس أجساد، وكانت وجوههم المتعبة من الدنيا تقاسي وتتألم، لقد أدركت بقسوة أن البؤس هو الحالة الراجحة في حياتنا وليس الحب...

Telegram: electronic_library

لأول مرة مذ ولدت تزحف إحدى البلايا الكبرى من جمجمتي، لم أكن معتاداً أبداً على حزن كبير، فطفقت أذهب وأجيء وقررت وأنا لا أزال طلق التفكير والمزاج أن أبحث عن أنانية إيجابية تجعلني لا أتأثر أبداً... ليمت من يمت ويتعذب من يتعذب، لا يهمني شيء لأنني أناني، كانت تلك الربوة هي التي أمِلْتُ أن أنجح في تسلقها لتفادي الغرق في الحزن، وأخذ إلى القاع من حولي!

شبح اليأس يخيم على العيون، أين لي أن أهرب من التعابير الكئيبة لوالديها وكل منهما يحاول أن يبدو وكأن شيئاً لم يحصل فلا يحقق إلا أعمق الفشل، المنزل كئيب بلا كوارث فكيف حين تطاله الفجيعة في الصميم. آه... نهر الوحل والحزن سيُغرق الجميع، أين أنت أيتها الأنانية... إنني أضيع.

وشيئاً فشيئاً أخذ يتبدى لي أن حجم الكارثة أكبر، وأن رحلة عذابها الحقيقية لم تبدأ بعد، فخيل إلي أن أحشائي تغور بعيداً عني وباطني غدا خاوياً، وحاولت الاقتراب من والديها لأخبرهما بأنني راحل لأنني أناني، وقد بدت أمها ذات الأربعين عاماً عجوزاً شاحبة مصفرة، ولكنني انفجرت باكياً، فحسمت أمري أن أعود إلى الحافلة، كان علي تفسير سلوك كهذا أمام والديها في الوقت الذي يتوجب علي البقاء لمنعهما من الانهيار، كنت أحاول أن أفهمهما أنني أخشى أن أنهار أنا أولاً فيتبعانني، أردت أن أحاول أن أقنعهما أنني لم أحل مشاكلي في يوم من الأيام سوى بالهروب، وأن وجوههم البائسة أثقل من الطاقة التي أملكها للاحتمال، ولكنني بدلاً من هذا انفجرت باكياً ولم أقل كلمة واحدة.

وخطوت باتجاه الحافلة وقد تمنيت لو أنني قد متُّ وفي قبر

Telegram: electronic_library

جدي استراحت عظامي، ولكنهما لمحانني، وأظهر وجهاهما لهفة شديدة، واتجها نحوي، وأبوها الذي كان يخشى من الرياح أن تنقل سلامي إليها، بدا وقد انزاحت عن وجهه الغشاوة التي تحجب رؤيته للمحبة، وتألق في عيني الأم وميض وكأنني أنا الأمل الأخير. وقال وهو يضع يده في يدي مازحاً:

ـ لقد تركتُ لك رسالة... هل يمكن أن يقال أنه حتى الشيطان لا يأتي عندما نطلب منه ذلك.

وقالت الأم:

ـ لقد ظلت ترتجف بدونك مدة طويلة.

وأحسست من نبرتيهما وكأنما يصافحان من يبعث الموتى وأنهما سرعان ما سيستيقظان حالما أنطق بكلمة خَورْ واحدة، ولكن جوفي الذي كان يتقطع بنصل كلمات الأم من أين له أن يفوه؟

وقال الرجل المحطم:

ـ لقد تأخرتَ جداً أيها السيد.

وقالت الأم:

ـ أنت كنت الأمل المفقود.

وانبعث صوتها من قلب تملكه الهمود.

وقال الأب:

ـ نحن متأسفين يا ابني.

وبدت عيناه وقد أتلفهما السهر.

وقالت سيدة الدموع:

Telegram: electronic_library

ـ أنت ضروري أكثر بكثير مما تعتقد، قال الطبيب أنها بحاجة إلى أمل لكي تتمسك بمحبة الدنيا.

وأحنيتُ رأسي كمن تثقل عليه الأحمال، وردد المقامر:

ـ قال الطبيب ستظل صحتها جيدة إن استمرت متفائلة وسعيدة.

وهتفَتْ الأم:

ـ نحن نحمد الله أنها بقيت على قيد الحياة.

ولكنني شعرت بالذعر أكثر: الحياة!... بوجه مرعب كهذا!... ووليت وجهي شطر الوادي، وعدت أجهش، ومر أعمامها وعماتها كأنما يسيرهم وابل من العذاب... وجلسوا بين سائر المحزونين.

وقال الأب:

ـ يا ابني... نحن نأمل أن تفتح عينيها فتراك.

فاتجهتُ إلى الوادي... وأخذت أنحدر.

فأردف:

ـ نحن نريد أن يشتعل في قلبها حب الحياة من جديد.

ولم أحر جواباً... وأخذَتْ قدماي تبتعدان، فصاح:

ـ إلى أين... ؟ بنات آوى تملئ الوادي، عدا الأفاعي والعقارب، إن ثعلباً لا يمكنه اجتيازه.

وقلت في نفسي: ومع ذلك سأهيم على وجهي وسيكون ذلك أفضل لي من...

وصرخَتْ ملكة البكاء متضرعة:

ـ ألا ترى أنه لم يبق سوى حبك؟

Telegram: electronic_library

عندها فقط توقفتُ... وجلستُ على صخرة، وطأطأتُ برأسي، وأخذ العالم يدور بي ويدور، العالم الذي كنت أظن أن الله خلقه للسعادة فقط.

وقال الأب:

ـ أنت يا من تتصرف كالطفل الباكي وليس كحبيب... ماذا يجدي أن تلقي بصرك نحو الأرض؟

فسمعا صوتي لأول مرة... متوسلاً:

ـ كفى... كفى... لا أحد يدري ما بي... لا أحد يدري ما بي... كيف أستطيع أن أحفظ وجهي جافاً من الدموع، وإن رأتني أبكي كيف لهذا ألا يزيد روحها مرارةً؟... كفى... كفى.

وقال الوالد:

ـ أواه... ألا توقد شمعة واحدة فقط في عتمة درب الحبيبة إذن؟

وشعرتُ بالعار من جبني... يا إلهي كيف قررت نفسي الهروب؟...

وأفردا لي غرفة مطلة على الطريق والبيوت والمدى، بعيدة عن الأنين المتواصل لدوائر العذاب، وبدا الاثنان في غاية الرضا، وهمست الأم في أذني: «لا تنسى... لقد أشعنا أنك خطيبها»، وبقيت وحدي... ولمحتُ من بعيد بحيرة وراء الرياح والغيم غارقة في الصمت: إن تلك الشواطئ فقط لم يكن باستطاعتنا زيارتها دون أن نستقل حافلة لا نعلم موعدها. وها هي قد غـدت أرحب بعد ذلك الشتاء القارس. آه... أن تتوغل عميقاً في مملكة الحب قد يودي بك إلى الجنون، وأن تتقهقر وتنسحب عند حافة الهوة يمرغ قلبك في وحل الخيانة، فأيهما تختار؟

Telegram: electronic_library

واجتاحتني أسئلة كثيرة لا مجدية وكآبة الغروب تطبق على المدى... يجب أن أبقى أنانياً وإلا فإن هذا الكابوس سيذهب بحياتي... من عليه أن يموت حباً إذن إن لم أفعل أنا...؟!

وفجأةً ظهر أبي في الطريق... مضطرب، يتلفت يمنةً ويسرة... ويحدق في كل شيء، فهرولت إلى الأسفل، فوجدته يتحدث مع المقامر، ثم جلس في حلقات المواسين، وعندما رآني ترك قهوته وجاء إلي وعيناي منكستان إلى الأرض، وأرخى ذراعه حول كتفي:

ـ لنعد...

ومن ردة فعل بدني أدرك دون أن أنظر إليه أنني سأحرن أكثر من دابة دون مرعى، فتركني ومضى إلى المقامر، وتهامس وإياه ملياً ثم عاد وقال بهدوء:

ـ على أية حال... متى عدت... ستجدنا في انتظارك بفارغ الصبر.

وأدار ظهره... ومضى، ثم التفت، وقال:

ـ لا تدعنا نقلق طويلاً.

وبعد عدة خطوات استدار من جديد:

ـ سيمضي كل منا إلى قدره... يوماً ما... وليس بوسعنا تغيير شيء.

ثم عاد فجأةً ودس في جيبي ألف ليرة [1]، وربت على كتفي:

ـ إن الحياة لا تبتسم للمرء دهراً طويلاً... عندما تكبر ستفهم كل شيء.

---

(١) ٢٥٠ دولار في ذلك الزمن.

Telegram: electronic_library

وظللت أرقبه حتى توارى.

وشعرت أن القمر يقطر مرارة على فناء العجائز، وانفجر فجأةً المقامر بعويل كالرعد حتى رغبوا أن يصيبهم الصمم، وأخذ يخور بألم وكأن ثمة من طعنه في بطنه. فانسحبت إلى غرفتي، وعلى الدرج خيل إلي أنني سمعت تنهيدة من غرفة مجاورة، واستبعدت ذلك، إن أي أنين منها لن يقطع كل هذه المسافة، ولكن انتابني إحساس أن يكون الصوت قد صدر عن الأم من مكان ما... ودخلت الحجرة... ولم أشعل النور... كانت البحيرة قد غاصت في حلكة الليل... واجتاحتني الأسئلة اللامجدية من جديد: من خلق العذاب... من؟ ألم يبق علي سوى أن ألبس ثياب الحداد على الغرام، مكتفياً بالندب على عالم كان طاهراً في ظلال الحب؟ واستلقيت... وقد عزمت أن أول ما أفعله في الصباح الاستفسار من الطبيب عن أي أمل... ولم أكن انتظر من النوم أن يأتي... بل وضعت كفيَّ وراء رأسي ونظرت إلى السقف، ولكن الإرهاق سرعان ما اغتال يقظتي... ووجدت نفسي أغطي كل العجائز السود اللواتي يجلسن متوجسات تحت العصافير المزقزقة برداء أسود حتى لم يبدُ منهن أحدٌ... وفجأةً نظرت فوقي وإذ بتلك الطيور قد استحالت إلى غربان ماكرة مخاتلة، وزاغت عيناي وشعرت باليأس، فاستيقظت، ثم نمت من جديد.

Telegram: electronic_library

ـ ٥ ـ

وفي اليوم التالي قدم عماد ليتلو صلاته الثانية، وبدا راكعاً أمام السرير ينظر إليها كمن يسجد أمام نبي يُجثى، ودموعه تنحدر ساخنة... يا إلهي... بأي عينين باكيتين أسند جبهته على حافة السرير... وراح يدمدم... لقد بعثت رؤيته الرعدة في أوصالي، وسرَتْ في داخلي رعشة موخزة. كان معبد العذاب لا يزال معتماً، فأضأت الشموع في أركانه، ثم أزحت الستائر عن النافذة، ولمحت الأشعة الزاوية على الشطآن الخفيضة للبحيرتين البعيدتين... ربيع الدموع... الوادي الحزين حتى الموت... أسالا دموعي منذ الصباح.

أيها الإله الذي يغلب الشياطين العنيدة ـ كان يرتل ـ يا ملائكة النسيان، ألقي نظرة على وجه العذراء الشاحبة، وإلى الأم التي تتلوى من الأسى، إن مرضها أحزن القرية كلها...

ووضعت كفي على ظهره برفق:

ـ عماد... أخبرني عن اسم الطبيب من فضلك.

ولكنه صاح بصوت فاجع:

ـ اذهب إلى الجحيم... أغرب عن وجهي.

وأحسست أن ثمة خلل شيطاني ينتاب أعصابه. «الغيرة قاسية

Telegram: electronic_library

كالهاوية»[1] على المتعقلين فما بالك على... وآثرت الخروج... ولكنه ندم ولحق بي، وأومأ إلي بأن أتبعه:

ـ إن عنوانه في البيت... يجب أن تفهم منه كل شيء... وتخبرني...

ولم نسر على الدرب، بل مشينا بين المزارع وقفزنا فوق الأسيجة، لقد سلك طريقاً مختصراً ملأ أقدامنا بالتراب: إن نفسه العصابية لا تحتمل السير طويلاً... وأدخلني حجرة ريفية سقفها من أعمدة الخشب وموقدها من حطب، وراح يبحث في صندوق أخرجه من تحت السرير... ولم تكن نظراته أبداً عدائية... رغم ذلك التخبط الانفعالي لمزاجه... بل طلب مني أن انتظر حتى يُعد شاياً ويعاود البحث... وأخذت أقرأ على عارض النافذة: «أيتها القلوب الطاهرة... يا نجمات الأمل الموعودة... إلى من جرعتهم الآلهة إكسير الحب، ماذا سيبقى لي لو انطفأ مصباح حبها؟». ورحت أتجول في أرجاء الغرفة، ولمحت على حائط: «يا عيون الأحبة انسيني... يا صورهم لا تبكيني... لا تبكيني»...

وعندما دخل بالشاي حدثني طويلاً عن ماضيه، وأعطاني عنوان طبيب في مرمريتا، وفجأةً شَهرَ كتاب «صادق العظم» في وجهي قائلاً:

ـ لقد جئت بك إلى هنا لأجل هذا... خذ اقرأ... أنت لست سوى «حجة الهلالي».

وخرج من الحجرة وصفق الباب وراءه...

---

(١) التوراة.

Telegram: electronic_library

لم أكن بحاجة إلى من يكسر لي قلبي أكثر، فأخذت الكتاب ومضيت، وعكفت على المخبز، حيث كان الفران يلوذ بتنور قروي من السنين الغابرة، يُنضج الأرغفة وشطائر الجبنة والزعتر، وجلست مكتئباً وأسندت مرفقي ووضعت رأسي في كفي، فقال:

ـ أنت خطيب روز... أليس كذلك؟

ـ أجل.

إن كلمة «حبيبها» محظورة في أمتنا العربية أما «عدوها» فلا غضاضة عليها.

ـ ألا فلا تزولن ذكراها من قلبك إلى أبد الآبدين.

ـ لم يقل أحد أنها ستموت.

فتابع لصق العجين في جوف التنور...

فصحت متطيراً:

ـ اسمع... لم يقل أحد أنها ستموت.

ولم يحر جواباً... ولم أكن احتمل تلك النظرة الغريقة التي تقول: لقد حدث ما لا يمكن تصحيحه... فأوليته ظهري وهممت بالخروج، فهتف:

ـ على رِسلكَ... يا خير زائر... شطائرك قد نضجت وشايك ساخن، وسفينة المحبين الحقيقيين تظل في قلب الموج على أية حال، لا تعرف الرسو على المرافئ...

يا إلهي... أين ملاك النسيان... يرف فوقي حتى أمضغ طعامي...

ـ اسمع هل يوجد في هذه القرية بائع للخواتم؟

Telegram: electronic_library

ـ خواتم!؟... ذهبية؟

ـ أجل.

ـ اسأل عن سيد الخواتم في مرمريتا، على بعد طلقة بندقية من هنا تصعدها باتجاه الجبل.

وصعدت الطريق إلى مرمريتا سيراً، وبدا الجبل من بعيد يسبح تحت نور الشمس ويشرف على أصقاع الوادي كله. ونسبةً إلى زاهد علَوي ساحَ إلى قمته مشياً ثم مات هناك، أُطلق عليه «جبل السايح»، حيث تعثر على قبره معلقاً بين الرياح والسماء، وخُيل إلي أن أتسلقه وحيداً لأنسى، وأبقى قرب القبر حتى اليوم السابع.

ومرت فتاتان صغيرتان خارجتان من المدرسة إحداهما ذات عينين جارحتين سوداوين، ونظرتا إلى سحنتي وبالغتا في الضحك... «حسناً... لا يحزن المرء في مثل هذه السن... مبكرة جائتني المحن»، رددتُ وأنا أحبس نفسي في صندوق من القنوط... كان البرتقال لا يزال على الشجر... وانتشرت باكراً الزهور الصفراء بين الأعشاب... وبدت بيوت حجرية هنا وهناك تتسلق سفح الجبل... لم تكن مرمريتا كما هي الآن بلدة الأبنية العالية وفنادق الخيال والنساء المتبرجات، كانت لا تزال قرية وادعة تعيش بمعزل عن النعيم... وتساءلت عن سر الكتاب الذي في يدي وأنا أقترب من عيادة الطبيب التي لم تكن سوى غرفة من منزله، وعندما عرفته عن نفسي، وقف من وراء طاولة المكتب ومد يده مصافحاً:

ـ آه... أنت خطيبها؟

ـ أجل

Telegram: electronic_library

وقال وهو يجلس:

ـ لقد تأخرت... جداً.

وأحنيت رأسي إلى أسفل:

ـ طرق الجبال كانت مليئة بالجليد... وملتوية بشكل خطر.

ـ وما الخطب، إنني أنا نفسي أستعمل البغال في الشتاء، وقد قصدت روزالين خمس مرات بهذه الأتانة.

وأشار بيده من زجاج النافذة إلى ما خيل إلي أنه حمار مربوط قرب العيادة... وبعينين خفيضتين أوشكت أن أقول أن والديَّ يمنعاني ولكنني آثرت الصمت فقال:

ـ هل جئت من عين الراهب مشياً؟

ـ أجل.

وتوقف الصوت في حلقي.

ـ تبدو مريضاً بالحب!

فأرخيت نظري إلى الأرض، حتى أن خصلات شعري غمرت جبيني، وتورد خديَّ.

ـ الله يشع فيك فيض نعمته.

فازددت توردا.

فقام من وراء الطاولة إلى المكتبة قائلاً:

ـ الآن أدرك لما أحبتك إلى هذا الحد!... ومع ذلك استبعد أن يكون الحب إلا موهبة... الرب هو الذي يهيئ القلوب التي تشرق.

وأخرج مجلداً ضخماً موشحاً بالرسوم، وأراني صورة شاب

Telegram: electronic_library

أميركي انحرف فمه كثيراً بعكس اتجاه الخد المريض، وقال لي أن «اللقوة المحيطية» التي أصيبت بها ناجمة عن التهاب فيروسي غير حميد ترافق مع أذيات أخرى في الأعصاب المجاورة... ثم أخذ يفتح الصفحات التالية قائلاً:

ـ أنظر... إن هذا الالتهاب حول مجرى العصب يجعل العضلات التي فقدت التغذية غير قادرة على أداء وظيفتها فيبدو الخد زابلاً على نحو مروع.

وأغلق الكتاب وأعاده إلى المكتبة!

ـ عندما أجريتُ لها العملية لم يكن هناك سوى شبحها خاوٍ حتى من صورته.

وجلس وراء طاولة المكتب من جديد... وهزني من كتفي وكأنما يريد أن ينتزعني من همودي:

ـ يجب أن تظلَّ هنا حتى اليوم السابع حيث بإمكانها النهوض على مقعد متحرك... خشية أن يطل اكتئابها القديم فيزيد الطين بلة.

ونظر إلي بعينين متوسلتين وكأنما أنا أريد غير ذلك... ورغم كل ما ذكر كنت أحس أن نظراته تقول «اطرح عنك كل أمل».

وبقيت صامتاً:

ـ اسمع هل نمتَ البارحة جيداً؟

فانفجرَتْ دموعي وكلماتي معاً:

ـ إن من كان لها صفات الطير... ستغدو جليسة مقعد متحرك.

فأطرق هو هذه المرة... حتى لامست جبهته حرف الطاولة، ودمدم كأنما يكلم نفسه:

Telegram: electronic_library

ـ المحبة قوية كالموت.

وأردفتُ:

ـ وذلك الميل الآسر لشفتيها قد غدا فجيعة.

لقد تقيأت كل المرارة التي غشتني في اليوم السابق:

ـ وتلك العينان الجميلتان اللتان صنعهما الحب قد...

وغصَّتْ الكلمات في حنجرتي... وخيم صمت مرعب أحال المكان إلى قبر يجثم على صدرينا، ونهضت فقال وجبهته لا تزال تلامس حرف المنضدة:

ـ امتطِ البغلة... ولا تعد مشياً إلى عين الراهب.

ولكنه فوجئ بي:

ـ ما العلاقة إذن بين «اللقوة المحيطية» وأطرافها السفلية؟

فأخذ يطرق بجبهته على حرف الطاولة... ولم يجب.

فرددت مستغرباً:

ـ اسمع ما العلاقة بين هذا وذاك؟

فازداد طرقه عنفاً، وظل يتناهى إلى أذني حتى غدوت قرب الأتانة، فرفع رأسه ونظر عبر الزجاج إلى كلينا، ورأيت فيهما نظرة الخباز نفسها، ثم عاد يطرق...

ووجدني الناس في ساحة القرية مذهولاً أبحث عن سيد الخواتم، ولم يكن ذلك الرجل سوى عجوزاً ذا طربوش أحمر، يبيع الذهب في حقيبة، ولما طلبت منه أن يريني ما عنده، قال وهو يظنني أزدريه:

Telegram: electronic_library

ـ أمعن النظر في وجهي حتى أُحْسِنْ إجابتك.

ولكن رأسي انخفض أكثر فقال:

ـ وأين نصفك الآخر؟

ـ مريضة.

ـ من أي قرية أنت... وأين نقودك؟

فأريته كل ما في جيبي، عندها قال «اتبعني»، وأخذني إلى بيته، ووضع أمامي كل ما لديه من أساور وحلق وحلي، فاخترت خاتمين، وانحدرت إلى عين الراهب وقد غدا الجبل ورائي، وجمعت لها باقة من أزهار النرجس والريح تهز الأشجار بأنين خافت. وهجم الليل على الجبل، وبدت نجمة القناطر معلقة فوق القلعة، وتناهت من عتمة الوادي إستغاثات بنات آوى... ولمحتني الأم من بعيد... وفوجئْتُ بها تقول:

ـ يا أخا البدر... لم نرك منذ البارحة... هل تناولت الطعام؟...

ولمحت عينيها وقد تلفت من الأسى الطويل، وخشيت أن تثقل عليها سحنتي أكثر، فآثرت المضي محزوناً من أن تأسى لسماع كلماتي. ورمقت روزالين من الباب على ضوء الشموع تتنفس تحت المصل، والشعر ينسدل على نصف وجهها، فوضعتُ الأزهار عند قدميها، وعدتُ إلى وحدتي، وأخذت أنظر إلى الخاتمين، لقد نمت الليلة الماضية في العتمة ثم اكتشفت أن البيت كله لم يشعل أنوراه، ولكن هذا اليوم كان علي أن أضيء الحجرة لأقرأ وأكتشف من هو «حجة الهلالي».

Telegram: electronic_library

- ٦ -

وفي اليوم الثالث جاء عماد ليقيم صلاته الثالثة، وبينما كنت أردد: يا ايتها الحجرة التي التقيتُ بها بالحب... لماذا لا تظلي عالمي إلى الأبد؟... كان هو يضع في صلاته أخلص ما في قلبه، وكانت روزالين في عزلة العدم والصمت.

ولم يتراءى لي أي خلاص... سوى في حلم الليلة الرابعة، حيث وجدت نفسي في غابة مظلمة، وكان ثمة مرتفع قد كسته أشعة الكواكب، وخطر لي أن أرتقي ذلك التل السعيد فتغرقني أنوار السموات الأزلية بالنسيان، لا أعرف كيف بدا لي تل القمر ذاك سيقودني إلى عالم أبدي.

وفي اليوم الخامس حلمت أنني في حقل أجمع من فوق أعشابه اليابسة عظام منثورة وأضعها في كيس أبيض أنقله هنا وهناك.

وفي الليلة السادسة حلمت بأن ثمة طاحونة في أسفل الوادي تديرها الرياح تحترق، ومع ذلك ظلت تدور وتدور، وظل دخانها يتصاعد حتى دخل من نافذتي ثم مالَ كأشباح هائمة على سريري، فاستيقظت ونظرت من النافذة، فلم أرى سوى صمت ميت يجثم على ليل الطاحونة.

Telegram: electronic_library

وفي اليوم السابع قدم عماد ليتلو صلاته السابعة، وكان لا يزال عقب كل صلاة يسيل دموع الذكرى في قارورة الآلام. وجاء بعده الطبيب وأزاح المصل. وكنت أجلس مطرق الرأس في معبد الأحزان، نائياً بنفسي عن أي سؤال أو تحية... لقد ألفيتُ نفسي بين الأب والأم والطبيب لا أحد يكلمه والجميع متمسكين به كآيات منسية من الحب، ثم خرج الجميع وجلسوا في الفناء يتهامسون وبقيت وحدي...

وتجول نظري بين لوحة «كثير وعزة» ومكتبة أسلافي، وميزتُ عبارة أخرى جديدة مكتوبة تحت اللوحة لم ألحظها من قبل «الفن حفيد الله» [1]. وعادت نظراتي تعانق كل شيء في الحجرة الحبيبة كأنني أراها لآخر مرة، وفجأةً استفاقت، وتألق في عينها برق من عيني، وبدا وميض ابتسامة على محياها، وتلمسَتْ يدها نصف وجهها الصامت كأنما لتطمئن أن الشعر لا يزال مرخياً على القسم المشوه، وهتفَتْ بشيء لم أسمعه، وكان في صوتها رعشة تستجدي، وكأن قلبي يمكن أن يتغير لمرآها الجديد... ولكن لا... لم أفهم حينها... لم تكن تتوسل أن أبقى على حبي، لقد حركَتْ يدها ببطء ووضعتها فوق الملاءة:

ـ أرجوك... إرحل.

لقد كانت تريد أن تبقى صورتها في مخيلتي كما أعرفها، ويظل الحب في داخلي مزهر إلى الأبد... واستجبت حالاً لهمس قلبها... وغادرت الحجرة، ولكنني وقفت وراء الباب المفتوح أتمزق، وأنا أدري أن نظراتها تتعلق بجانب ثيابي... هل أرحل؟ يا للخيانة... هل

(١) دانتي.

Telegram: electronic_library

أبقى كثقل على صدرها؟... يا للجحيم... لم يعد ينفع شيء... قلب المحبوبة متعلق دائماً بالجمال... والبشاعة محت كل شيء... ولابد أنها أدركت أنني متردد في رحيلي، وأنني لست فقط رهن إشارتها وإنما أيضاً بأمر الحب، فنادتني... وأمسكت كفي بيدها:

ـ إنها... النهاية...

ـ لا... لم يقل أحد ذلك.

ـ على الأرجح أنه قال... ولكنهم لن يخبروننا.

وغاص النصل في قلبي أكثر... وخشيتُ من وجهي أن يمتقع... وحاولت الخروج:

ـ إلى أين؟

والحقيقة أن قدميَّ أرادت أن تقودني إلى الطبيب الجالس في الفناء، ولكنني قلت:

ـ أنتِ تهتفين بحنين صوت فيروز.

فابتسمتْ من جديد:

ـ أنتَ مندفع لتستعلم... لا تقلق... لقد قلت لك: سأحبك وأنا في القبر.

وحاولت الخروج... فصاحت:

ـ لا جدوى يا صاحب العهد... لا جدوى.

فوضعت وجهي في كفي من خوفي أن أنشج فقالت:

ـ ولا جدوى من هذا أيضاً... لا جدوى يا حبيبي...

فأسرعت إلى الفناء... ولمحني الطبيب واجماً، وأجبت نظراته المستفهمة:

Telegram: electronic_library

ـ إنها لا تريد أن تراني... تبدو بلا أمل...

ـ هل استيقظَتْ؟

وهرع الثلاثة إلى الغرفة:

ـ ادعها باسم الحب.

ولكن ما إن دخلنا، حتى تبدت جالسة على حافة السرير:

ـ يا إلهي... إنها ترغب في النهوض... انظر... ما إن سمعت تلك الآية...

ورمقتها بنظرة عميقة نورانية جعلت والدتها تبتسم، وكأن لسان حالها يقول: أهكذا كنت تسحرها بنظراتك إذن... أهكذا أنتَ تجعلها تذوب تدلها؟ وأومأت إليَّ روزالين وفهمْتُ كل شيء... لقد وضعَتْ يدها بيدي بوجه سعيد وغادرت سرير الدموع إلى الكرسي المتحرك، وقال الطبيب:

ـ كيف تشعرين؟

ـ أحسُّ بالوهن يتملك كياني كله.

ـ بل بالعكس... لم تستطيعي الأسبوع الفائت حتى الكلام.

والتفتَ إلى الباقين:

ـ لقد وعدتكم أنها ستتعافى.

ورنَتْ إلي:

ـ لقد ولى الشتاء... وأنت لا تزال تضع الشال الأحمر.

ـ وما أزال ألُمُ عنه الأقمار والظلال... لقد تولى الشتاء حقاً فلنعد إلى حقولنا ومشاويرنا.

Telegram: electronic_library

فقال الطبيب:

ـ حسناً خذها... الشمس ترشق أشعة النهار في كل الاتجاهات.

واتجهت بعيني إلى روزالين... فأظهر وجهها لهفة شديدة، فوضعْتُ يديَّ على المقعد المتحرك فاستفهمَتْ:

ـ هل نذهب؟

وإني وإن طاش قليلاً قلبي قلت:

ـ إن السماء تكرمني إذ أمضي معكِ في صحبة الربيع.

وكما يظن الشحرور أن الشتاء قد انتهى، ما إن يرى بارقة من الطقس اللطيف فيغادر مبتهجاً، هكذا دفعتُ كرسيها وانطلقنا، وقد استعار الجميع البسمة من تعابير روزالين وإشراقة وجهها، وبينما لوحوا لنا بأيديهم مضينا لا نلوي على شيء.

وفجأةً ظهر عماد في الفناء وسمعت الوالد يزمجر به:

ـ إذا نحن عاقبنا من يضمر لنا المحبة فماذا نحن فاعلون بمن يرجوا لنا الشر؟

لم أكن أفهم في تلك السن كيف يشهر تارةً سيف المحبة وفجأةً سيف الاختلال... وتبعتنا الوالدة ووضعتْ زوادة من الطعام أسفل الكرسي، وحين أصبحنا طليقين قالت روزالين ونظرها يغشى السهوب الضاحكة تحت الشمس:

ـ كم فرقتنا ندفات الثلج!...

ووجدنا أنفسنا من جديد بين البساتين، وبعد نصف ساعة... ويا للمعجزة بدا كل منا وكأنه لم يتغير شيء، لا دموع لا عذاب لا مرارة، بل أننا كنا أيضاً نشعر بحنان القرية كلها وعطفها، والتمعتْ عناصر

Telegram: electronic_library

الطبيعة أمامنا كأجمل مما كانت عليه في الأيام الخوالي. وكان في الهواء من الفرح والانطلاق حتى تكاد الغبطة تنبعث من أغصان الشجر، انعكس كل ذلك في صوتها:

ـ ليس الألم سوى وهم... الحياة ينبوع جمال.

ورغم أن الشمس لم تقوى على أن تلطف من برودة أول أيام الربيع كانت تغمر وجهينا بالقُبل، واستسلمتُ لها في المسير بين آلاف الزهور الصفراء التي نبتت بين العشب الأخضر، كنت حقيقةً أدفع كرسيها ولكن غبطتها كانت تجر روحي إلى أعلى تلة للحبور، كنت أحبها ولو تحولَتْ إلى رماد ولكنها كانت دائمة التذكر أنها غارقة غارقة. كنت فرحاً بها ولم أحزن إلا لأن الذين حولي كانوا في جحيم أشد اضطراماً من أن تحتمل مراهقتي... الآن فقط في هذا السهب اكتشف أنني سعيد سعيد وأنهم كلهم لم يكونوا سوى أشباح من وهم لم يمسني من بؤسها أي أثر... تبدد من نفسي كل خَوْر ما إنْ لمحتُ ابتسامتها تحتفل بالعالم كأنها ولدت من جديد، وعينها تتألق سعادةً أكثر من نجمة القطب، وخاطبتني بوهن:

ـ هل تذكرتني!؟... إنني أنا روزالين...

وكانت ترمي إلى: هل تذكرت نزهاتنا؟... وقلت: يا سيدة الملائكة إن هدايا الربيع كلها متجمعة أمامك، لقد تذكرتْكِ تلال الأحلام، والريح وزهور الدروب المتفرقة وليس أنا فقط فقالت:

ـ هل بكيتني طويلاً؟

ـ لا...

فاستدارت إليّ فجأةً... وحدقتْ بي مستفهمة فقلت:

Telegram: electronic_library

ـ لم أرَ شيئاً قد تغير... بالعكس أشعر أن حبي قد غدا أعلى.

فعادت إلى النظر إلى البعيد البعيد قائلةً:

ـ بلى... إنني بقربك أشعر وكأن شيئاً لم يتغير...

ثم أردفَتْ!

ـ إن قدري أن أحبك... تلك الأنشودة مكتوبة في السماء.

وكما يُعرف البيلسان بخزانة أدوية، هكذا كان حبنا بلسماً لجراحنا، كنت أتجه إلى روحها كما يتجه المرء عندما يرى الأزهار إلى عبيرها... كانت روزالين مسرحية كتبها ملاك وهو حالم... كان كل لقاء سيناريو نوراني تشارك غبطتي فيه فنظن أنفسنا في الأبدية... واليوم أخذتْ توحدنا الطبيعة مثلما كانت تفعل سيمفونية «شهرزاد» وقصائد نزار، كان كلانا محدق بالمطلق الذي وراء حبنا ولكننا لم نكن ندرك ذلك سوى من خلال فرحنا الآسر ببعضنا.

ولم تكن خطاي قد بلغت الخمسين بعد ذلك حتى أشارت إلي:

ـ من هنا...

ـ إلى أين؟

ـ إلى أشد الطرق عزلةً وأكثرها وعورة.

فوجدنا أنفسنا متجهين صوب المدى... وبدا لها وكأن أرواح نيسان السعيدة المولد تسعى لعناقنا متنهدة تحت الشمس:

ـ من عساها تلك الأرواح الآتية من بعيد نحونا؟!

وبما أنني كنت أحدق في نفس الاتجاه لم أرى شيئاً!

ـ ماذا تقصدين؟

Telegram: electronic_library

ـ ألا ترى... أهي كائنات تنثر أزهاراً أم قطيع يرعى؟

ووضعَتْ كفها على جبينها لتحجب الضوء عن عينها، كان المدى متناه إلى أكثر مما تستطيع متابعته عيناي، ولم أعرف ماذا يتراءى لها، وقلت:

ـ لا أدري إن بصري يزيغ إذ أرنو إلى هناك.

ولكن عينها لم تتوانى عن التحديق:

ـ من ذا الذي يطوف حول وادينا وهضابنا ؟

ـ السراب يتأهب للمجيء إلينا.

ولكنها قالت:

ـ لابد أن هذه الأرواح قد سمعت وقع أقدامنا لذا فهي تهرع نحونا فرحة.

عندها أدركت أن رسالة المحطة الغريبة ربما لم تكن سوى مجرد رؤى من هذا القبيل... وقلت:

ـ بل إنه أينما ترسلين وميض عينيك تتألق الدنيا بالأنوار.

ولم أر أبداً نوراً فاق ذاك البهاء المشرق على العشب الأخضر، وتزينت السماء بزرقة أصفى أيام الربيع... وأضفى كل ذلك السكينة على خاطري المتلهف، وفجأةً التفتَتْ إلي وقالت:

ـ عد بي إلى الوراء قليلاً... لقد حاذينا شجرة، كنا قد كتبنا إسمينا عليها... تُرى ألا يزال موجوداً هناك؟

ودارت العجلات بالاتجاه المعاكس، ساحباً الكرسي دون أن ألتفت، وحين وصلنا... كاد قلبها يفيض فرحاً، وكأن إسمينا مكتوبان

Telegram: electronic_library

على خد التاريخ... وذُهلتْ أكثر وهي تراني أمسك يدها ويُطوق خاتم خنصرها:

ـ لقد أشاعت والدتكِ أننا مخطوبين وها أنا أضع خاتم الخطوبة في يديكِ!

ولكنها قالت:

ـ من قال أنني أريد أن أخطبك... أنا أريد أن أحبك فقط!

وارتعد الخاتم بين سبابتي وإبهامي وهما لا يزالان يلامسان التماعه، وشعرَتْ بترددي فقالت:

ـ حسناً... دعه... ولكن لنسمه خاتم المحبة!

وأشرق وجهي، وابتسمْتُ من أعماقي كما لم أفعل في يوم، وخيل إلي أن وهجه السحري يلفح وجهي... ولكن فجأةً أخرجَتْ سكيناً من زوادة الطعام وقالت:

ـ خذ... اقطع خصلة من شعري... أنا أيضاً يجب أن أهديك شيئاً.

وابتعدنا عن شجرة الغرام، حتى لم أعد أتبين أين هي... فيما لو اتجهنا إلى الوراء، وأخذَتْ زهور النرجس تُرافقنا على امتداد البصر وتملأ هواء الربيع الذي أفعم رئتينا بالنشاط... وفي صمت وصلنا إلى صفاء الساقية. فهتفَتْ وهي ترنو إلى المياه المترقرقة:

ـ إننا لا نقول شيئاً...

فجلسْتُ على العشب، وقلت وأنا أحدق في كل شيء:

ـ ولِمَ الكلام والشمس تغمر روحينا بالرضا.

ـ نعم لن يسع الكلام ما في قلبينا.

ـ إن روحينا محكومتان بالحب وليس بالكلام.

Telegram: electronic_library

ونظرَتْ إلى الأشجار التي كانت لا تزال شتائية وقالت:

ـ يخيل إلي أنني لست وحدي التي أحبك وإنما تلك الطبيعة التي حولنا أيضاً.

وأردفَتْ:

ـ كم أتحرق شوقاً إلى تقبيلك... ولكن لم يعد لي سوى نصف فم...

وغاص النصل من جديد في أعماق قلبي، وأكملَتْ:

ـ هل تقبل مني نصف قبلة؟

وأرخيت لها خدي، وكيمامة دعاها الهيام هكذا طبعَتْ شفتيها على خدي، وهي تحبس أنفاسها كأنما لتحتفظ بحرارتي أطول مدة ممكنة... وقمت بتقبيلها على الخد المتوج بالمرض، بعد أن أزحت الشعر وأنا أرتجف، ولكنها شعرت بالرضا... وقطَعت مشاعرنا قطة أخذَتْ تموء قرب زوادة الطعام، ففتَحتْها لها ووضعتْها على العشب، قائلةً وقد أخذَتْ القطة تنظر إليها بحذر ثم شرعت تأكل:

ـ لا أعتقد أننا سنشعر بالجوع... إن الهواء القادم من الروابي البعيدة يهيم بروحينا إلى سعادة أنقى.

ورحلَتْ أفكاري كسفينة ورقية فوق أمواج الغدير البطيئة متذكرةً ما قرأته في يوم من الأيام:

ـ يكتبون سيأتي يوم يسمو فيه الإنسان إلى حد تضمر فيه أجسادنا وتصبح السعادة عبر العقل فقط... ثم يختفي بدوره ويغدو الإنسان وعياً خالصاً مجرداً.

فبدت ساهمة مفكرة ثم قالت:

Telegram: electronic_library

ـ ثم ماذا... ثم ماذا يا صاحب العهد؟

فقلت ما خيل إليَّ أنه بلسمٌ لروحها:

ـ سيمر وقت طويل على أهالي القرية حتى يغدون مثلكِ، وعندها يختفي الإنسان الصغير، ويلد الإنسان الأعلى في كل مكان... وتتغير الأرض... ويومها فقط تبدأ أعضاء الإنسان بالتضاؤل، طالما أن سعادته روحية فقط، أو عقلية بشكل ما، ثم ستختفي تلك الأعضاء طالما أنه لا لزوم لها، كما تلاشى زيله تدريجياً، وسيغدو الإنسان وعياً خالصاً منطلقاً مسحوراً سعيداً، ولا أعتقد أن ذلك سيستغرق أكثر من مليون سنة، وهي كما تري مدة وجيزة بالنسبة لعمر الأرض.

ـ ولكن ماذا بعد... ماذا بعد أن يصبح الإنسان وعياً خالصاً؟

ـ أنتِ قولي يا سيدة القوافي... عسى أن ينتابنا النعاس... فنغفوا على الأعشاب.

وعادت الغيمات تتجمع فوق الساقية الحزينة، وتلفتَتْ في كل الاتجاهات باسمةً ثم عادت لتستقر نظراتها على وجهي:

ـ لقد زار المطر هذه الديار ثم غطاها الثلج، ثم قدم إليها الربيع، وها أنتَ تزورها الآن تحت الشمس...

وكانت الشمس قد قطعَتْ شوطاً أبعد مما قدره خاطري المشغول بفرح أسمى، وانهزمت الظلال، وبدأ الضوء يتوارى، فقلت:

ـ لنعد...

وقفزْتُ واقفاً، وأدرت المقعد باتجاه الشمس الغاربة، دون أن انتظر جواباً، خشية أن تكون منتظرةً دورة القمر، لقد آثرتُ العودة، ورأيتُ أنه بإمكاني التصرف وفقاً لتقديري، ولكنها قالت:

Telegram: electronic_library

ـ إن كنت تريد... فإنني باسم الحب... بإمكاني أن أحرك في سبيلك قدميَّ، وأعود مشياً إلى جانبكَ.

فصرخْتُ، وصرخَتْ يدي أيضاً بإشارة منها:

ـ لا...لا تفعلي... أرجوكِ.

فقالت:

ـ آه... إنك لم تؤمن بعد... أن الحب يصنع معجزة.

فقلت مشيراً بكفي:

ـ لا داعي... لا داعي... إن سرتِ فلن يغير الأمر شيئاً في قلبي.

فقالت:

ـ دعنا نرى... إنني على يقين عميق بأن إله المحبة سيمسكني من يدي...

ـ أرجوك... لا...

ولكنها بدأت تتزحزح، وأي إصرار مني بدا سيحطم قلبها، ثم وضعَتْ قدميها على العشب، وهناك هوَتْ حالما حاولَتْ الوقوف، ورغبَتْ أن تتزحزح مرة ثانية وتنهض ولكنها سقطَتْ من جديد، وخلال كل ذلك كانت تحرص ألا تنحسر طيات الشعر... وبدا على وجهي خيبة مريرة أشبه بالموت، ليس لخشيتي أن ينكر القلب الإيمان بالمحبة، بل لخوفي أن تبتئس بشكل ما، فأشحت بوجهي باتجاه الغسق، وساعدتها على النهوض وأجلستها على المقعد ثانيةً، وفجأةً صدمني صوتها بعذوبة لا يُفصح عنها بيان:

ـ إن القدمين فانيتين... لكن الروح خالدة...

Telegram: electronic_library

فدمدمْتُ:

ـ أجل... أجل...

وأدرتُ المقعد باتجاه الشمس الغاربة من جديد.

لا أعرف كيف اختفى النهار بهذه السرعة، لا شك أن الزمن سيتوارى يوماً ما عندما تصبح لحظات الحياة مجرد إلهام آسر، كما سيتلاشى المكان عندما يصبح الكون كله المنزل... كانت الشمس قد استوت في دائرة الزوال، وأخذ يحل صقيع الغروب، وصرت غير واثق من أنني أتبع أقصر الطرق، وبدأتُ أتوجس عودة الشعور بأنها غارقة ناقصة، وزادني خوفاً كيف غطى الضباب الوادي، وخفت من صوتي أن يتهدج أو يرتجف، فلذتُ بالصمت، وتابعتُ دفعها فوق الحصى والأعشاب، حيث بدت صامتة لفترة طويلة، وفكرْتُ: لابد أن صمتها من صمتي، وسحر الغروب يغرق روحها كما يفعل بكياني. ووطئَتْ العجلتين على درب شوكي أخذ يتناهى إليّ تقصفه، وسرتُ وسرتُ وكنت أتمنى أن أقول كلمة ولكنني كنت أؤثر أن يشجعني صوتها، فقد كان النور قد بدأ يتبدد وقلبي قد غطس في الكآبة، وفجأةً ألقيت نظرة خاطفة على وجهها... فوجدتها ميتة... وشحوب الغسق يُقبِّلُ وجنتها، وفي تعابيرها سكينة طفل، ووجهها يقول:

تذكرني... فإنني أنا روزالين...

فؤاد يازجي

fsyazji@Hotmail.com

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

صلوات الحب السبع

فؤاد يازجي

عندما عدتُ من أسفاري، وقد تغلغلَ في ضُلوعي أعمق ما في هذا العالم، ولم تَعُدْ النفس تختلج لترنيمات أقل قداسة، لم أجد سوى ذكريات حبيبتي الأولى مسرباً إلى الحلم. لأكتب من وحيها روايتي الأخيرة (صلوات الحب السبع)...ومَثَلي الأعلى قولُ الرومي: (لا تكن بلا حب..فتكون كالميت..مُتْ في الحب..فتبقى حياً إلى الأبد)... وهي ذي الأسطر الأربعة الأولى منها:

عندما يناديكَ الحنين، إلى أرض مفروشة بالذكريات، إلى تلك الأطلال التي تهتف بكل خلية من جوارحك، تبتهل إلى ربك ألا تنسى شعاعاً واحداً من ابتسامة آسِرَة من شفتي مراهِقة، أول فتاة سقطَتْ عليك نظراتها المقدسة، فطارت الدنيا بها وبك.. حين الحب في أول وعيه.

Portrait of E. A. Naryshkina Vladimir Borovikovskiy

Designed by: Studio

دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع
البصرة . العراق
0780 1312072 - 0771 8994265
e-mail : daralfaiha@yahoo.com

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com

ISBN 978-1-7732211-0-6